صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق – ص ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

حزيران (يونيو) ١٩٦١

العدد الاول

السنة الرابعة



كتاب مفتوح

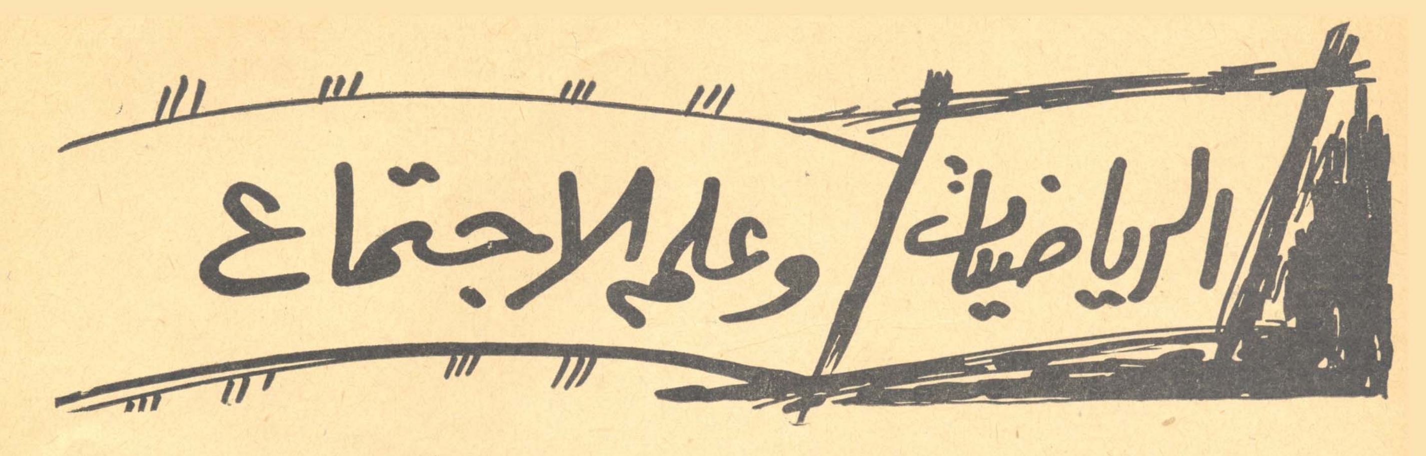
الى سيادة رئيس المجلس التنفيذي

يا سيادة الوزير ! كان من الواجب أن تكون فاتحة هذا العدد – وهو الاول من عام هذه المجلة الرابع – فاتحة شكر وعفو . شكر لمن وقف الى جانب هذه المجلة الفتية موقف الاخ والصديق . ولمن عمل على احيائها واستمرارها في رسالتها مؤمنا أنها ما تزال الوجه الوحيد لادب هذا الاقليم . وفاتحة عفو عن فئة طال نقيقها في الظلام فوهبناها للكرامة والاخلاق .

أجل يا سيادة الوزير ! كان من الواجب أن تكون فاتحة هذا العدد فاتحة شكر وعفو ، لكن مأثرتكم الاخيرة ، وموقف سيادتكم من الشاعر نديم محمد وتبنيكم قضيته وضمانكم لحياته ، شغلنا الا عن أن نرفع اليكم آيات الشكر فقد ازداد ايماننا بعد هذه الظاهرة النبيلة – كما ازداد ايمان كل أديب – بعطفكم على الادب والادباء ، ورعايتكم لهذه الفئة الواعية بعد أن حرمت من كل عطف وتقدير دهورا طويلة .

يا سيادة الوزير ! انها كلمة حق أريد بها حق . لقد دخل الاطمئنان قلوب من وهبوا أنفسهم لصناعة الحرف وخدمة الفكر وآمنوا مرة أخرى بسلامة مصيرهم ونبل رسالتهم أمام تشجيعكم ورعايتكم ، فلكم من كل منصف قدر عملكم الطيب أسمى آيات الشكر وأرفع آيات التقدير .

مدحة عكاش



بقلم: الدكتور عبد الكريم اليافي

كل عصر يكسب أنواع المعارف الحاصلة فيه اتجاها فكريا مميزا . لقد كان الباحثون في غضون القرن التاسع عشر يتصورون العلم كأنه ميدان واسع كل كشف جديد انما يأتي ليشغل حيزا في ذلك الميدان وليقوم بجانب أمثاله دون تغيير كأن له صفة الاطلاق والابدية . وكان الباحثون ينوهون بالاختصاص الضيق فكأن كل عالم ينبغي أن يقيم في دار أو غرفة تمثل اطار اختصاصه دون أن يعلم ما يجري في الاماكن الاخرى أو يفيد من اختصاص الآخرين . أما اليوم فالعلماء ينظرون الى العلم كأنه نهر زاخر جرار يستمد مياهه من ينابيعه الاصلية ويخط مجراه شيئا فشيئا فيتلقى في طريقه روافد متعددة تزيد في تدفقه وقوته وعظمته كما تزيد في اتساع واديه وفي خصب الاراضي التي يجتازها ويرويها.

وربما كان من المفيد التنقيب عن أسباب هذا الاتجاه الحديث في تاريخ العلم نفسه ثم أيضا في تبدل الاحوال الاجتماعية والسياسية العامة في أقطار الارض واتجاه كثير من الدول والامم نحو التعاون وادراك الشعوب حقيقة تضامنها الانساني العميق ومعرفتها أهمية هذا التضامن لانشاء الحضارة الجديدة برغم تشبث بعض الفئات الحاكمة الرجعية في بعض البلدان. ولن تضيع جهود المنقبين في هذا المضمار عبثا .

وموضوع حديثنا ههنا أن نبرز أنواع الوشائج القائمة في العصر الحاضر بين علمين جد متفاوتين وهما الرياضيات من جهة وعلم الاجتماع من جهة مقابلة . الاول أشد العلوم تجريدا وأكثرها تعميما والثاني أشدها اشتباكا وأكثرها تعقيدا . الاول أقدم العلوم الانسانية والثاني يكاد يكون أحدثها . وضع أوغست كونت أولهما في بداية تصنيفه المشهور للعلوم ووضع ثانيهما في آخر ذلك التصنيف وفي ذروته . وسأقتصر على بيان أنواع هذه الوشائج دون أن أستنفد معالجة جوانب هذا الموضوع الواسع ودون أن أتناول بالتفصيل جميع المحاولات التي جرت في هذا المجال . سيكون مثلي في هذا البحث مثل المهندس الجيولوجي يبحث عن مجاري المياه الظاهرة والباطنة ويحاول أن يبين مناطقها وروافدها المختلفة وجانبا من نقاط اتصالاتها التاريخية . سأذكر أولا بعض اللقاءات التاريخية الناجعة التي حصلت بين هذين العلمين ثم أضرب بعض الامثلة الموجزة على استعمال علم الاجتماع للرياضيات أداة للتعبير والتحليل والضبط ووسيلة للتفكير والتنقيب والبحث ثم أعمد الى بيان تأثر علم الاجتماع في العصر الحاضر بالعلوم الدقيقة في المنهج والطريقة وكذلك أبحث عن أهمية الرياضيات للعالم الاجتماعي ولو كانت هذه الاهمية في بعض الاحيان غير مباشرة . ثم أعود في الخلاصة فأوضح شأن الدراسات الاجتماعية بالنسبة الى الرياضيات والى العلوم جميعا .

ابن خلدون الرائد الاول

أول لقاء ناجح ناجع بين الرياضيات وبين علم الاجتماع انما تم برعاية المفكر العربي ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) . لقد أتى هذا الباحث من مراحل الحضارة العربية الاسلامية في عصر كانت المعارف المختلفة قد تطورت تطورا مناسبا وبلغت درجة ملائمة في النضج والكمال . لقد نشأ قبله باحثون في مختلف الميادين كالرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية وغيرها اتصفوا بأصول البحث العلمي الحصيف والتنقيب الموضوعي المتبصر الخصيب . فلما جاء ابن خلدون استطاع أن ينقل تلك الاصول الى ميدان البحوث الاجتماعية والانسانية . ولذلك لا نعجب من توافر الطرق الصحيحة التي يعتمدها في مقدمته المشهورة عند تحقيق بعض الاخبار او تصحيح بعض الآثار ،

أو تقرير بعض الآراء الاجتماعية والاقتصادية ٠

ولنضرب مثلا اعتماده الحدس الكمي الذي هو أساس الرياضيات في ميدان ازدياد السكان فهو حين يذكر مغالط المؤرخين يورد في ذلك ما نقله المسعودي وكثير من الرواة عند الكلام على جيوش بني اسرائيل من أن موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف أو يزيدون ٠ فينقد هذه الرواية من وجوه مختلفة واحد هذه الوجوه عدم الاحتمال لازدياد بني اسرائيل في الفترة الواقعة بين اسرائيل وبين موسى٠ والمسعودي نفسه يروي أنه قد « دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا ، وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من الفراعنة ويبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى ذلك العدد » وكذلك يبعد أن يتشعب النسل الى ذلك الحد ان كان احصاء الجيوش قد وقع في زمن سليمان ٠

ونحن نعلم أن مقدمة ابن خلدون كانت خلاصة لآرائه الاجتماعية كتبها دفعة واحدة في مدة خمسة أشهر عندما اعتزل غمار الحياة السياسية وأقام في قلعة ابن سلامة في الجزائر ٠ ولا ندري هل اعتمد في تفنيده تلك الرواية على حسابات أجراها في ازدياد السكان وذكر نتيجتها أو بنى ذلك على حدس رياضي ملهم ٠ ولكن مطالع مقدمته يجد في الحين بعد الحين آراء اجتماعية متعددة مستندة الى اعتبارات كمية ٠

ان المفكرين في الحقيقة حاولوا منذ القديم اعتماد الارقام في البحوث الانسانية فنحن نذكر عند اليونان كيف كانت مدرسة فيثاغورس تجد في الارقام كنه الطبيعة وسر الكون كله لا سر الحياة الاجتماعية وحدها ونحن نعلم كيف عمد أفلاطون في كتاب النواميس أن يعين عدد المواطنين اليونان في المدينة ليجعل لهم حدا أمثل وهو (٥٠٤٠) بسبب قبول هذا العدد القسمة على الاعداد الاثنى عشر الاولى ما عدا (١١) فيسهل عندئذ تقسيم المواطنين على أشكال متعددة اذا اقتضى الامر للتدريب والتعبئة وفرض الضرائب وتوزيع الخيرات والاشغال وغيرها ٠ واذا اعتبرنا الاهل والاولاد والرقيق وجدنا أفلاطون يتصور الحد الامثل لسكان المدينة يقع تقريبا حول ثلاثين ألفا ومثل هذا التصور مجرد تأمل خيالي لا يسنده واقع ولا يسوغه بحث علمي وانما هو من قبيل الفرض والتوهم الملابسين لاحوال تاريخية معينة ٠ وليس مثله تفكير ابن خلدون الذي يتأمل حقائق الاشياء وطبائع الموجودات وخصائص النمو والزيادة والعوارض الذاتية للاجتماع الانساني على حد تعبيره٠

انتقال المعارف الى الغرب

وورث الغربيون حضارة العرب وثقافتهم ولكنهم ظلوا أمدا طويلا عاجزين عن بلوغ شأو تفكيرهم ومضاهاة أوج اعتباراتهم فكان الباحثون عندهم يجرون في سبل مشتتة وينهجون مسالك متفرقة حتى نشأ عندهم علم الاحصاء ٠ وكأن النظريات العلمية والكشوف التاريخية تحتاج في طبيعة حصولها الى تطور انساني طويل مثلها في ذلك مثل المعلومات الفكرية لا يتسنى فهمها للطالب الناشىء الا عند بلوغه مرحلة مناسبة من النمو الجسمي والعقلي والا عند المامه بجملة من الثقافة الضرورية ٠

نشأ الاحصاء في أوروبا وليدا لاب لم يرث عنه غير الاسم ولام ورث عنها الطريقة والصناعة ٠ أما الاب فكانت تلك الحركة التي تدعى بالاحصاء والتي راجت في جامعات ألمانيا ٠ ظهرت في القرن السابع عشر واستمرت حتى منتصف القرن التاسع عشر وكانت وصفا عاما لاحوال البلدان والدول يعتمد على الجمع والتأملات النظرية دون الارقام ٠ وأما الام فكانت مدرسة الحساب السياسي التي نشأت في انكلترا في القرن السابع عشر وبلغت أوجها في نهاية القرن الثامن عشر حين كان يعالج ملتوس نظريته في السكان فكان هؤلاء الباحثون يعتمدون خاصة على الارقام لتكون أساسا لنظرياتهم الاجتماعية والاقتصادية واستمرت هذه البحوث تمشي على استحياء متقدمة طورا متمهلة تارة ولعله من الطريف أن نذكر هنا محاولة حاولها مهندس واقتصادي فرنسي هو شارل دوبان ٠ نشر بعض البحوث في الاقتصاد فاتجه اتجاها القى الذعر بين الفلاسفة وعلماء الاخلاق حين تناول القوى الانتاجية بالبحث فسوى الحصان الواحد في فرنسة بسبعة من الرجال والثور الواحد باربعة منهم ٠ واذا ذكرنا مثل هذه النادرة في تاريخ اللقاء بين البحوث الاجتماعية والارقام فلكي نشير الى أن البحوث الحديثة انما سبقها تردد طويل وشاب تاريخها أخطاء نبهت على سلوك الطريق القويم ٠

ويعتبر الباحث البلجيكي كيتلي (١٧٩٦-١٨٧٤) المؤسس الحقيقي لعلم الاحصاء والموطد لاركانه ٠

مكانة كيتلي

ولم يكن كيتلي رياضيا كبيرا ولا عالما من الطبقة الاولى ولكن التأثير الذي تركه في الاحصاء من جهة وفي البحوث الاجتماعية من جهة أخرى كان عميقا ٠ كان يسمي بحوثه الفيزياء الاجتماعية ومثل هذه التسمية نجدها عند معاصر لكيتلي وفيلسوف مشهور اليه ينسب فريق من الباحثين الغربيين تأسيس علم الاجتماع وهو اوغست كونت اذ كان يطلق على بحوثه الاجتماعية أيضا لفظ الفيزياء الاجتماعية حتى رأى ضرورة تفريقها عن بحوث كيتلي فاستبدل بها لفظا جديدا نحته من أصل لاتيني وآخر يوناني وهو السوسيولوجية أو علم الاجتماع ٠ وقد راج اللفظ وطغى وأصبح اسما لعلم جديد بين العلوم الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والانتربولوجية وغيرها٠

ومن الطريف أن نذكر هنا خطأ كونت الـذي لم يكن راضيا عن تطبيق الاحصاء في الميدان الإجتماعي كما لم يكن راضيا بالجملة عن حساب الاحتمال • يروى أنه لما عين فاحصا للطلاب المتقدمين لمدرسة البوليتكنيك كان يمتنع عن امتحانهم في حساب الاحتمال الذي كان جزءا من برنامجهم ، وهذا ما أدى الى ابعاده عن وظيفته •. انما كان يلتمس اليقين في الرياضيات اذ كان يحسبها موضع اليقين في الوقت الذي كان لوباتشفسكي قد وضع فيه منذ قريب هندسة جديدة مخالفـة للهندسـة الاقليدية المعتادة •

ان بحوث كيتلي في الفيزياء الاجتماعية ليست في شي من الفيزياء • مثلها في ذلك مثل بحوث كونت ، وان كان هذا المفكران يقتبسان بعض المصطلحات منها ومن الميكانيك • فتلك الالفاظ انما هي من قبيل الاستعارة والتشبيه وينبغي الا تحمل على وجه الحقيقة • هي بوادر تدل على تباشير علم جديد هو علم الاجتماع •

كيتلي اعتمد على الارقام فحسب خصائص الانسان المتوسط الطبيعية والخلقية • ورأى أنه حين يكثر عدد الحالات المدروسة تزول الصفات الفردية وتبرز من خلال تلك الحالات الكثيرة ثوابت عامة تشبه القوانين • لقـد كانت هذه الافكار غريبـة على الباحثين الاجتماعيين في أوروبا وان كانت مألوفة عند فريق من الرياضين قبل كيتلي فلما جاء هذا الاحصائي وكدها وأبرزها ابرازا واضحا من بين غموض الارقـام التي استطاع الحصول عليها في مجال حوادث الولادات والوفيات والزواج والاجرام والانتحار • لقد وجد أن مثل هذه الامور وهي تتعلق بارادات الناس تجري غالبا في نظام ثابت مطرد بل قد تجري في نظام أدق وأضبط من نسق الامور الطبيعية •

لنذكر فقرات قليلة مما كتبـه كيتلي وليكن مما يتعلق بمعدل الاجرام في فرنسة فهو يقول : « ثمة ميزانية تدفع بوجه ثابت مخيف هي ميزانية السجون والمقاصل وهي التي يتحتم السعي لتقليلها •• انها ضريبة يدفعها المرء بشكل منتظم ثابت أكثر ثبوتا مما هو مدين به نحو الطبيعة أو نحو صندوق الدولة الا وهي ما يقدمه من ثمن للجريمة • تلك هي حـال النوع الانساني المحزنة فنحن نستطيع أن نستبق الحوادث فنذكر عدد الذين سيلطخون أيديهم بدماء بني نوعهم ، وكذلك عدد المزورين وعـدد الذين يقتلون بالسم وهلـم جرا •• ان المجتمع يشتمل في ذاته على بذور جميع الجرائـم التي سـوف ترتكب •• وليس الذي يرتكب الجريمة بهذا الاعتبار الا الاداة المنفذة •• فاذا لم تتبدل الاسباب لـم تتبدل النتائج » •

وما ذكره كيتلي من معدل الاجرام يمكن أن يذكر مثيله عن معدلات أخـرى اجتماعية وطبيعيـة أصبحت متداولة متعارفة كمعدل الزواج ومعدل الولادات ومعدل الوفيات •

فيشنر وتجاربه

الى جانب كيتلي وفي عصره كـان الباحث الالماني فيشنر (١٨٠١ ـ ١٨٨٧) يعتمد على التجريب في بحوثه الانسانية • كان يقوم بتجارب على أشكال بسيطة هي عبارة عن مستطيلات يعرضهـا على جماهير الحضور في مخبره ليسألهم أي المستطيلات أجمل شكلا وأكثر امتاعا للذوق أو هو يطلب اليهم أن يصنعوا بأنفسهم المستطيل الذي يرضي أذواقهم أو هو ينتبه الى أشكال المستطيلات الشائعة الاستعمال كالنوافذ وبطاقات الزيارة والكتب وغيرها ويحسب ابعاد اكثرها انتشارا وذيوعا • بحوثه هذه تتصل بعلم الجمال ولكنها تتصل بعلم الاجتماع اذ كانت تريـد الكشف عن وجـود بعض النسب الممتعة لاذواق الناس • ولقد كانت النتيجة أن أكثر المستطيلات تفضيلا عند الناس ورواجا في الاستعمال ما حقق المقطع الذهبي أو العدد الذهبي المعروف عند الرياضيين وهو أن بعده الصغير الى بعده الكبير يساوي بعده الكبير الى مجموع البعدين • ثم كثرت الدراسات العلمية في هذا السبيل •

وهكذا كانت هذه البحوث الاولى التي تعتمد على الارقـام في ميادين علم الاجتماع بدايـة خصب حافل بالوعود الطيبة • ولقد كثر اعتماد الارقام كثرة شديدة في بحوث الاقتصاد • واذا صعب بيان التفاصيل التاريخية حول استعمال الارقام في ميادين العلوم الاجتماعية على اختلافها فانه لمن المفيد أن نضرب بعض الامثلة على فوائد هذا التطبيق في العصر الحاضر •

اعتماد علم الاجتماع للرياضيات

لنتأمل وفيات الاطفال • ان الدولة الحديثة اليوم تتبارى في خفض معدل هذه الوفيات وترى في انخفاضها دليـلا على التقـدم الاجتماعي لانهـا خسارة في الارواح الانسانيـة ولانهـا خسارة في الاموال التي تصرف في مناسبات الولادة وتضيع سدى كما انها ارهاق لصحة الامهات ، هذا عدا الحزن والاسى اللذين يصيبان نفوس الاهل • وأصغر معدل لهذه الوفيات يقع في السويد وهو حول ١٧ وفاة في كل الف مولود حي على حين نجد هذا المعدل يتجاوز ٢٠٠ وفاة في بعض المجتمعات الاخرى •

ولقد عمد أحد الباحثين الرياضيين في المرفولوجيا الاجتماعية وهي قسم مهم من علم الاجتماع الى تأمل معدلات وفيات الاطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم العام

الاول في بلدان متعددة وفي غضون سنين متتابعةواستطاع بطريق الرياضيات وحدها أن يفرق بين نوعين من تلك الوفيات وفيات ذات عامل داخلي ووفيات ذات عامل خارجي ٠

فالنوع الاول معناه أن عامل الوفاة فيه قائم في الطفل نفسه ومتعلق بالوراثة وبحالة التكون وشروط الوضع ويصعب تلافيه على الاغلب ٠

والنوع الثاني وهو القسم الاكبر معناه أن عامل الوفاة فيه آت من خارج الطفل ومتعلق بالبيئة الخارجية التي يأتي الطفل اليها ٠ فلو تغلبنا على هذا العامل بالتعهد والرعاية والعناية لما حصلت الوفاة فتبعتها تقع على عاتق الاهل والمجتمع ٠

وقد أكدت احصاءات انكلترا وبلاد الغال المتوافرة حول أسباب الوفيات منذ أكثر من مائة سنة نتائج هذا التحليل الرياضي ٠

ووفيات الاطفال ذات العامل الداخلي انما تقع على الغالب في الشهر الاول بعد الوضع على حين تقع وفيات الاطفال ذات العامل الخارجي في جميع شهور السنة فهي تقع في الشهر الاول كما تقع في الاشهر الاحد عشر التالية ٠ وقد دل الحساب على أن مقدار الوفيات ذات العامل الخارجي في الشهر الاول يعادل ربع مقدارها في مجموع الاشهر الاحد عشر التالية تقريبا ٠

لنضرب مثلا يوضح ما نعنيه ٠ نأخذ بلدا مات فيه من عشرة آلاف مولود حي ٤٧٢ قبل تمام السنة الاولى بينهم ٢٦٨ هلكوا بعد انصرام الشهر الاول فاذا أخذنا الرقم الاخير وزدناه بمقدار الربع حصل معنا مجموع وفيات الاطفال ذات العامل الخارجي وهو ٣٣٥ ٠ ثم ان الفرق بين الرقم الاول وهذا الرقم يعين وفيات الاطفال ذات العامل الداخلي وهي ٤٧٢ – ٣٣٥ = ١٣٧ واذن ١٣٧ ، ٣٣٢ هما نسبتا وفيات الاطفال ذات العامل الداخلي وذات العامل الخارجي في كل عشرةآلاف مولود٠

ولا شك أن مثل هذا التحليل الرياضي الذيذكرنا نتيجته وأهملنا شرح طرقه الرياضية الواسعة يلقي ضوءا شديدا على جانب غض من البنيان الاجتماعي له مساس بصحةالامهاتوبارواح الاطفالوبالنفقاتالمهدرةعبثا كما أنه يتجاوز النظرة الرياضية الاجتماعية الى التدابير الصحية اللازم اتخاذها لمكافحة ما تمكن مكافحته منهذه الوفيات ٠

ثمة جانب آخر من البحوث الاجتماعية الحديثة يعتمد على أخذ ما يدعى في الاحصاء بالعينات وتسمى تلك البحوث بالمسح الاجتماعي وتتناول دراسة حاجات المناطق واستطلاع الرأي العام ٠

يتصعب علينا في قضية من القضايا المهمة لدى مجتمع أن نتعرف آراء جميع السكان الذين قد يزيد عددهم فيه على عشرات الملايين ٠ ولذلك نكتفي بتحديد عينة لا تزيد على الالفين من الناس مثلا نعرف كيف ننتخبها اما عن طريق المحاكمة والمحاصة بحيث تمثل فئات الناس جميعهم واما عن طريق المصادفة والاحتمال بحيث يكون نصيب كل من أفراد العينة من احتمال السؤال يساوي نصيب كل من الباقين ٠

وقد أسست معاهد لانجاز مثل هذه الدراسات في كثير من أنحاء الارض ٠ الا أن هذه الطرق ليست خاصة بعلم الاجتماع فقد تجاوزته الى دراسة الاسواق والمجالات الثقافية والصحية والسياسية وغيرها كما تجاوزته الى المجال الزراعي اذ يحسب مثلا محصول القطن السنوي قبل قطافه باجراء حساب عينة يحددها حساب الاحتمال٠ ولا يتسع البحث للافاضة في ضرب الامثلة ٠ وجودة هذه الطرق انها تمكن من حساب مقدار التقريب وتبين مدى الضبط الى جانب النتائج التي تقدمها ٠

لغة الرياضيات

ان الرياضيات ضرب من ضروب البيان ٠ وهي في ذلك مثل اللغة والكلام ٠ واذا ساغت اللغة للتعابيرالفنية والادبية والفلسفية فان الارقام تسوغ للتعابير العلمية والتحليل الدقيق المضبوط ٠ وكثيرا ما نذكر في علم الاجتماع بعض المعايير العددية الدالة على مستوى المعيشة عند شعب من الشعوب كقياس الاجل المتوسط مثلا وهذا اعتبار احتمالي اجمالي فلا نجد في مضمار اللغة عشرات الصفحات تفيد نفس الدلالة وتعرب عن عين القصد ٠

وكما أن لغة الكلام نفسها ليست لمجرد الدلالة والافهام فحسب بل هي لاثارة التفكير اذ كان الفكر متصلا باللغة فكذلك لغة الرياضيات تستعمل في علم الاجتماع وفي العلوم الاخرى وسيلة للتفكير وذريعة للتنقيب والتحليل ٠

في مثل هذا السبيل نستطيعأننجد خصبا وانتاجا للتفكير الاجتماعي حين نعتمد في بعض الاحوال على أداة التعبير الرياضي ٠ أما المحاولات الكثيرة التي تريد أن تفرغ بعض البحوث الاجتماعية في قوالب رياضية صرف فانها لم تنته الى كبير فائدة ٠

محاولات متفرقة

واذا كانت هنالك عبرة لتذكير بعض هذه المحاولات فربما كان من المناسب أن نشير الى الباحث الاسباني بارسيلو في الربع الاول من هذا القرن حين شبه الفرد المجرد المتصور بالذهن والذي لا يقبل التجزئة بالنقطة المادية في الميكانيك العقلي وحين شبه البيئة الاجتماعية

بحقل القوى والتمس في الحياة الاجتماعية تعبيرات علمية تشابه ما هو متعارف في علم الميكانيك ·

وكذلك لا نغفل بحوث علم الاجتماع الشكلي حين حاول المفكر الالماني فون فيزي أن يحلل الحادثة الاجتماعية الى عاملين سلوك الشخص ك والوضع الذي هو فيه ·

(ح) = (ك) (و)

ثم ان السلوك يتحلل الى عاملين : مزاج الشخص أي الانا (ن) كما عينتها الوراثة والى تجاربه التي مر بها (ت) ·

(ك) = (ن) (ت) ·

وكذلك الوضع يتحلل الى البيئة الطبيعية (ط) والى سلوك الآخرين كَ الصادر عن خصائصهم الوراثية من جهة وعن تجاربهم نَ من جهة ثانية ·

أي (و) = (ط) (نَ) (تَ)

فيمكن أن نكتب (ح) = (ن) (ت) (ط) (نَ) (تَ)

وثمة محاولات حديثة كثيرة في مثل هذا الاتجاه لم تنته الى نجاح مؤكد · وكذلك أكثرت السوسيومتريا وهي احدى المدارس الاجتماعية الحديثة في أمريكا الاعتماد على التعبير الرياضي في روائزها المختلفة ·

تأثر علم الاجتماع بالعلوم الدقيقة

بيد أن علم الاجتماع زيادة على اعتماده لغة الرياضيات في أحوال كثيرة تأثر بالاعتبارات الفكرية التي حصلت في العلوم الرياضية فعدل نهجه ، ووسع مجالاته وكان مثله في ذلك مثل بقية العلوم ·

كان العلم بأنواعه في القرن التاسع عشر يتخذ الحتمية عقيدة له وشعارا لبحوثه · وأوضح قول يشف عن تلك الروح الحتمية التي كانت تخامر العلماء قبلا ما كتبه الرياضي الفرنسي هنري بوانكاري اذ يقول : « العلم حتمي وذلك بالبداهة وهو يضع الحتمية موضع البديهيات لانه لولا هي لما أمكن أن يكون » فلا غرو اذا رأينا في هذا الجو الفكري المشبع بالحتمية علماء الاجتماع سابقا حين يتناولون شروط علمهم الجديد ينقبون عن القوانين التي تسيطر على الظواهر الاجتماعية · كأن الكون عندهم على اختلاف مجالاته وأحواله عبارة عن جملة آليات متسقة الانتظام · واذا اعتمدوا حساب الاحتمال في بعض الاحيان فانما كان يسوغ اعتماده صعوبة تتبع الظواهر في تفاصيلها الدقيقة ·

ولكن الامور تبدلت منذ ذلك الحين · فلقد أصبح الباحثون ينظرون الى اطراد القوانين الطبيعية على انه نتيجة احصائية صرف لحوادث كثيرة العدد · فاذا نفذنا الى أجزاء الكون الدقيقة وتتبعنا الحوادث المفردة الضئيلة منها وانتهينا الى شفا عالم المادة وعالم الطاقة اضطرنا الحساب والتدقيق الى استعمال الاحتمال في هذه الاحوال المتطرفة · وهكذا نجد أن علماء الاجتماع في العصر الحاضر قد تغيرت مواقفهم عما كانت قبلا فأصبحوا اذا بحثوا عن علاقات في الظواهر الاجتماعية نظروا اليها على انها علاقات ذات صفة احصائية واحتمالية ·

ان مبدأ العلية كان يستلزم عند توافر الظواهر المعتبرة علة حصول ظواهر أخرى بالضرورة تعتبر معلولة ·

ومبدأ الحتمية الذي ساد في القرن التاسع عشر يتضمن توكيد مبدأ العلية بهذا الشكل · فكان يصاغ في صورة معادلة تفاضلية تفيد أنه اذا عرفنا حالة جملة في اللحظة الحاضرة أمكنت معرفة حالتها بالضبط في لحظة لاحقة كما أمكنت معرفة حالاتها في الازمنة التابعة · والمراد بالحالة ههنا الموقع والسرعة · وبهذا الاعتبار نحذف كل احتمال في التعبير الرياضي عن الظواهر الطبيعية ·

أما اليوم فان تجربتنا العلمية الدقيقة بطبيعتها الانسانية تقتضينا استعمال الاحتمال واعتماده · لنذكر المثال المشهور الذي أفضى بالعالم الالماني هيزنبرغ الى ما سماه بعلائق الارتياب · ان وسائل بحثنا عن الكهرب تلجئنا الى استعمال النور لفحصه ولكن النور مؤلف من فوتونات أو سنيات على حد اصطلاحنا نحن قريبة المقادير من الكهرب فاذا أنرنا الكهرب بالنور أوقعنا سنيات عليه فزحزحته عن موقعه وأدخلت على سرعته اضطرابا كما تقع بالتشبيه كرة البليار على كرة مثلها وذلك بسبب المفعول كمتون بحيث تتعذر علينا معرفة موقع الكهرب وسرعته الحاليين عند قياسهما بصورة دقيقة حاسمة · فلا بد لنا من ان نتنبه الى الجانب السكوني والجانب التحريكي للكهرب مقرونين بالعلاقة التالية :

△ كحك × △ق يقارب (هـ) ·

باعتبار △ كحك الخطأ المرتكب في قياس كمية الحركة ، △ ق الخطأ المرتكب في قياس الموقع هـ ثابت بلنك وهو يعادل ٦ر٥ × $١٠^{-٢٧}$ ارغة ثانية · اذن تسود اللاحتمية في نطاق الفيزياء الرياضية ويزداد حساب الاحتمال شأنا في اليوم بعد اليوم · واذا ظهرت الحتمية في بعض المجالات فانما هي حتمية احصائية · انها نتيجة لعدد كبير من الحوادث ·

لنصور هذا التغير الكبير الذي طرأ بعبارات أخرى ولتكن منتزعة من علم الاجتماع · ان الانسان يتصور نفسه في بعض الاحيان قطبا لحياة نفسية اجتماعية هي خاصة به أو به وبذويه معا ولكنا نجده أيضا مرتبطا بهذه الكتلة البشرية التي هي مجموعة أبناء وطنه · وعلم

الاجتماع يشرح هذا الارتباط بحساب الاحتمال . ان نسب الزواج مثلا في بلد من البلدان ونسب المواليد ونسب الوفيات ثابتة الى أمد ومعلومة الاتجاه ولا تختلف الا اذا طرأت تبدلات عميقة في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والصحي . هذا من أجل المجموع . ولكن عندما نتكلم على الافراد لا نستطيع الا أن نستعمل لغة الاحتمال وأن نستشف مدى هذا الاحتمال وهو يختلف من شخص الى شخص حسب السن والجنس والحالة المدنية وغير ذلك . نحن حين ننتظر قدوم مولود جديد لا نستطيع أن نتحكم في تعيين جنسه صبيا او بنتا ولكنا نستطيع أن نجزم بنسبة عدد المواليد البنين الى عدد المواليد البنات عامة . وكذلك من أجل الوفاة لا يستطيع امرؤ أن يعرف متى أجله ولا أجل غيره ولكن يمكن حساب الاجل المتوسط للجيل الذي هو او غيره منه وحساب الحياة الاحتمالية لهذا الجيل وكذلك العمر النظامي للناس في المجتمع الى غير ذلك من المصطلحات التي لا تنجلي دلالاتها الا بعد الاطلاع على معانيها في أبواب علم الاجتماع .

وكذلك كان العلم في القرن التاسع عشر ذا صفة وضعية مبالغ فيها . فلقد كان الباحثون في وقت قريب مضى يمنعون خروج بحوثهم العلمية عن نطاق الظواهر المشاهدة مباشرة أو عن طريق الآلات ويقتصرون على الملاحظة والوصف دون محاولة لتغيير الواقع . لكن تقدم العلم بالاستناد الى طرائق الرياضيات خلع على البحث العلمي صفة عقلية كبيرة جعلت الانسان يشعر بأهمية العقل وسيطرته على تحليل الواقع والاستفادة من هذا التحليل لزيادة تفهمه او لضرورة تغييره . كانت المادة في عصر قريب مضى تتبوأ مكان السيادة بالنسبة الى العالم تفرض عليه شروطها والغازها وتتطلب منه تفهمها وحلها . وفي هذا العصر ظهرت سيادة العلم بالنسبة الى المادة بعد أن أدرك جانبا لا بأس به من أسرارها بوسائله الرياضية . فهو يضع شروطه وحلوله التي استخلصها من دراساته المختلفة ويلزم المادة اتباعها . ومثل هذا الموقف بدأ يحصل بالنسبة الى علم الاجتماع تجاه الظواهر الاجتماعية . أصبح الباحث الاجتماعي لا يقتصر على مجرد وصف الظواهر وملاحظتها السلبية . بل هو يقصد الى التأثير فيها وضبطها وتغيير مجراها بالنسبة الى مصلحة بلاده ومصلحة الانسانية .

أواصر غير مباشرة

ثمة أواصر أخيرة ومهمة ينبغي أن نشير اليها بين الرياضيات وعلم الاجتماع وهي أن الرياضيات تؤثر في المجتمع بصورة غير مباشرة عن طريق تقدم العلم وصناعة ما يحتاجه الانسان من ضرورات المعاش وكمالاته ، وبذلك تهم علم الاجتماع .

لننظر فيما يحف بنا من مرافق الحياة نجد ان الارقام تكاد تكون موجودة في كل شي . انها محتجبة وراء الظاهر الحسي للاشياء ولكنها لا تلبث عند التأمل أن تبدو ناصعة . هذا المصباح الكهربائي وأنابيب الانارة هذه تشتمل على أرقام تقيس لنا شدة التيار وتردده ومقاومة الاسلاك وشدة النور المنبلج وغير ذلك مما هو معروف في بحوث الكهرباء . ومكبر الصوت هذا انما تستتر فيه حسابات مغناطيسية وكهربائية متداولة عند الباحثين . وهذه القاعة التي نحن فيها انما قامت على أرقام المهندسين وهذا الوقت الذي يجري ويكاد ينتهي نقيسه بالاعداد . حتى النور الذي ينساب في هذا الجو عند تأمل طبيعته يرتد الى طاقة مؤلفة من جسيمات وهي مقادير محسوبة بتردد ألوان النور وبثابت بلنك . كل ما يبدو لابصارنا ويصل الى اسماعنا نستطيع أن نرده من بعض الوجهات الى الرياضة والحساب . ان حدس الفيلسوف اليوناني القديم فيثاغورس حين ينظر الى كنه العالم فيجده قائما في العدد لا يتأكد في يوم كما يتأكد في هذه الحضارة التي نعيشها . الارقام ترافقنا في مجالسنا وبيوتنا ومكاتبنا وفي جميع الاحوال والمعاملات فهي كالظلال او كالملائكة الحفظة او كالاصدقاء المساعدين . هل نتكلم فضلا عن ذلك على السيارات والقاطرات والمصانع حتى الصواريخ ؟! ان الرياضيات في كل ذلك لها المكان الاول . انها المفتاح السحري الذي نفتتح به خزائن المادة والطاقة وكنوز الارض والفضاء . وهي في كل ذلك تهم الباحث الاجتماعي الذي تعنيه الحياة الاجتماعية ويعنيه تفهمها .

بل عدا العلم والصناعة والحضارة نجد أن صحة استعمال الارقام استعمالا بسيطا دليل على صحة التكوين العقلي وبرهان على الحس السليم فاذا صادفنا اضطرابا عند أحد من الناس في مزاولة عمليات الحساب البسيطة لم نملك أنفسنا من الضحك والابتسام . ولقد استغل صانعو الفكاهات هذه الناحية استغلالا كبيرا . سئل جحا يوما أنت أكبر أم أخوك . فقال : اني أكبر منه بسنة . وفي العام القادم نصير نحن الاثنين في عمر واحد .

ويورد ابو حيان التوحيدي في كتاب الامتاع والمؤانسة ، رسالة كتبها مجنون الى مجنون أغرب ما فيها تأريخها وربما كان هو الذي وضعها وهي :

« .. كتبت اليك ودجلة تطغى وسفن الموصل ها هي وما يزداد الصبيان الا شرا ولا الحجارة الا كثرة فاياك والمرق فانه شر طعام الدنيا ولا تبت الا وعند

رأسك حجر أو حجران ·· وكتبت اليك لثلاث عشرة وأربعين ليلة خلت من عاشوراء سنة الكمأة · »

ويدخل في هذا القبيل حساب النساء لاعمارهن اذ يتبع ذلك منطقا خاصا سئلت زوجة عن عمرها فقالت عندما تزوجت كان عمري ثماني عشرة سنة وكان زوجي في الثلاثين وقد احتفلنا أمس ببلوغ زوجي سن الستين فقد تضاعف عمره وتضاعف عمري أيضا فأناني السادسة والثلاثين ·

مكانة علم الاجتماع

بينا حتى الآن مكانة الرياضيات بالنسبة الى علم الاجتماع ويبقى في الختام أن الخص بعدة فقرات مكانة علم الاجتماع بالنسبة الى العلوم عامة والى الرياضيات خاصة ·

ان العلم ثمرة من ثمرات المجتمع وهو بهذه الصفة يدخل في نطاق علم الاجتماع · ويمكن لمؤرخ العلوم أن يشرح علاقة العلوم وتطورها ونموها بالمراحل التاريخية وأساليب الحياة الاجتماعية وازدهارها وهو عندئذ يظهر الصفة الاجتماعية والحضارية للعلم وللمعرفة بأنواعها ·

ولقد أبان الفيلسوف الالماني اشبنغلر بوجه الخصوص علاقة الرياضيات بالحضارات وذلك في الفصل الذي عقده عن معنى الارقام · فكل حضارة تتضمن طرازا من الرياضيات معينا لان الرياضيات أولا عند ذلك المفكر علم ذو منهج دقيق كالمنطق ولكنها أوسع نطاقامنه وأكثر خصبا ، ولان الرياضيات ثانيا عنده فن صرف يضعها الى جانب الفنون التشكيلية والموسيقى وذلك بالنظر الى حاجتها للالهام الموجه والى الاصطلاحات الشكلية التي يتضمنها نموها ، ولان الرياضيات ثالثا وأخيرا فلسفة وميتافيزياء عالية كما أوضح أفلاطون قديما وكما أوضح ليبنتز ·

ولهذا كله يبرز اشبنغلر المعاني المختلفةالتي يجدها للرياضيات في الحضارات المتفرقة المختلفة ويقرن أوج تكاملها بأوج تكامل بعض الفنون في تلك الحضارات · وهذا مدعاة للرياضي الى التأمل والتفكير والاستفادة ·

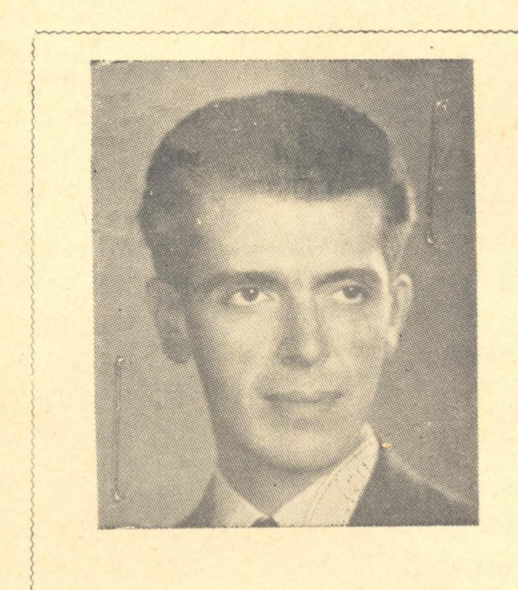
ولما كان العالم يهتم بالعلم وبمستقبله وبشرائط تنظيم البحث العلمي ونموه لم يكن له بد من أن يعمل على تهيئة الجو الاجتماعي المناسب لذلك النمو والتكامل والازدهار · فهو يولي كل ما يمس العلم عنايته ويختصه باهتمامه وانتباهه ويسعى لتوفير تلك الشرائط جميعها متعاونا مع غيره من الباحثين · وبهذا الاعتبار كل عالم حقيقي لا بد من أن يكون عالم اجتماع أيضا لان موضوع اهتمامه قضية حيوية أساسية لتقدم العلم ولتقدمالمجتمع المستند الى تقدم العلم · ان واجب العالم لا يقف عند باب مخبره بل يلاحقه في حياته الاجتماعية كلها ·

هنا يأتي علم الاجتماع في طليعة العلوم جميعها أهمية وشأنا ·

ولم تكن مسؤولية العلماء كبيرة في يوم من الايام مثلها في العصر الحاضر · فهم من أجل تقدم العالم وتقدم المجتمع ينبغي أن يعملوا لتوفير شروط هذا التقدم المزدوج وأولى هذه الشروط التعاون المشترك المنظم ودعم الكفايات الحقيقية وحماية الاستقلال القومي وصيانة السلام ·

الشعب وحرية الفرد في فلسفة هيجل

بقلم : الدكتور بديع الكسم



الشائع أن هيجل فيلسوف تجريدي يجيد التلاعب بالمعاني لبناء نظام مذهبي شامل يضم في بنيته الهرمية معطيات العقل والوجدان والتاريخ . والواقع أن تتبع تطور الفلسفة الهيجلية يكشف عن اهتمام دائم بالوقائع والتفاصيل . فهو منذ مؤلفاته الاولى يعلن أن مركز اهتمامه هو الحياة الانسانية كما تتجلى في التاريخ . فقد تأثر بالثورة الفرنسية وفكر باصلاحات فعلية تبعث الحياة جديدة في المؤسسات النخرة . فموضوعه الاساسي هو حياة الشعوب في تمثيلها للروح المطلقة .

لقد آمن هيجل أن الفلسفة وحدها هي التي تستطيع أن تكشف عن حقيقة هذه الحياة وعن دلالتها في تطور الوجود . المهمة الاساسية كما يقول هي ان نعقل الحياة، ويقصد بذلك حياة الفكر والروح التي لا تنفصل عن التاريخ . ان هدفه ان يكشف عن روح شعب من الشعوب أو عن روح دين من الاديان ، وان يتوصل الى مفاهيم جديدة تستطيع أن تعبر عن وجود الانسان ضمن الشعب الذي يعيش فيه . ذلك **ان المرآة التي يستطيع الفرد أن يرى فيها نفسه ، ليست الطبيعة أو الفن كما كان يدعي ذلك بعض الفلاسفة من قبل ، وانما هي روح الشعب** . هذه الروح التي هي واقع من خلق الافراد أنفسهم والتي تتجاوز بدورها هؤلاء الافراد وتعلو عليهم .

يقول (هولدرلن) صديق هيجل وشاعر المانيا الفيلسوف : ما أسعد الانسان الذي يستقي فرحه وقوته من ازدهار الحياة في وطنه .. كذلك يرى هيجل أن الفرد من حيث هو فرد ليس سوى مجرد من المجردات . **أما حقيقته العميقة فهي هذا الواقع الشعبي الذي ينصهر فيه . والشعب ، بكل ما يضج فيه من قيم وأفكار وعادات يجسد المثل الاعلى للفرد ويجعله حاضرا أمام عينيه . فروح الشعب اذن توفيق بين ما هو واقع وبين ما يجب أن يكون . انها واقع تاريخي يتجاوز الافراد تجاوزا لا متناهيا ، ويسمح لهم في الوقت نفسه أن يجدوا أنفسهم على صورة موضوعية .**

وهنا يتحمس هيجل لبنية الحياة اليونانية القديمة حيث لا تعني الفضيلة صراعا بين الفرد والشعب وانما تعني توافقا صميميا بين ارادة الفرد وارادة المجموع أي حيث لا يتحقق مضمون الفضيلة الا في حياة الشعب نفسه . والشعوب في التاريخ هي التي تجسد ـ كل شعب منها وفق عبقريته الخاصة ـ الطابع الكلي للانسانية الشاملة . لذلك يرى هيجل أن فلسفة التاريخ ليست سوى تطور روح العالم عبر المراحل الجزئية التي تمثلها الشعوب المختلفة .

والذي يهمنا في بحثنا هذا أن هيجل يعارض في مفهومه لروح الشعب المفاهيم الذرية السائدة في القرن الثامن عشر . فهو يرى أن الشعب لا يتكون من جمع أفراد ، كل واحد منهم بمثابة ذرة مستقلة بنفسها . وانما الشعب وجود عضوي سابق في وجوده على أعضائه . فروح الشعب لا تناقض روح الافراد لان بين الروحين نوعا من التناسق الازلي . ان الفرد لا يستطيع أن يحقق

نفسه تحقيقا مليئا الا عندما يشارك ما يتجاوزه ، ويعبر عنه في وقت واحد ، كالاسرة والثقافة والشعب • وفي هذه المشاركة وحدها يكون الفرد حرا •

ويلاحظ أن هيجل يعرف روح الشعب بالعوامل الفكرية ويعد الارض والقوى الطبيعية شروطا تسمح لظهور روح معينة • وهذا لا يعني أنه يجهل العلاقة بين روح الشعب والطبيعة ، فهو يقول : ان روح الشعب ترتبط بالارض برباط خفيف ، ولكنه يقاوم كل محاولة لقطعه كما لو كان محمولا بقوة سحرية •

أما فكرة الحرية بوصفها نوعا من الاتساق بين الفرد والشعب أو نوعا من مشاركة الفرد الفعالة في حياة أمته ، فقد كانت في رأي هيجل ، متحققة في العالم اليوناني القديم • وزاول هذه الحرية هو الذي ولد ما يسميه هيجل الشعور بالاسى والشقاء •

فالشعور بالشقاء، في صورته المجردة، هو الشعور بالتناقض بين الحياة المتناهية للانسان وبين فكرته عن اللانهاية • ان التفكير يرفع الانسان الى المطلق ويجعله يتجاوز كل ما هو متناه محدود • فالانسان اذن شعور لا متناه وفي الوقت نفسه وجود محدود بتعييناته الواقعية وهو شعور بهذا الصراع ومحل هذا الصراع • انه شعور بالشقاء •

وتجلى هذا الشعور على الصعيد التاريخي عندما فقد اليونان والرومان حريتهم وخضعوا لنظام الاستبداد السياسي ، وانهارت بسبب ذلك ديانتهم القومية • عند ذلك تحولت الحرية الى لفظة لا تملك قوة التأثير لان الشبكة كما يقول هيجل لا تنفع الصياد شيئا اذا ما جفت مياه الانهار •

فالمواطن القديم كان حرا لانه لم يكن يشعر بالتعارض بين حياته الخاصة وبين حياته العامة • فالدولة لم تكن قوة غريبة عنه تخضعه بنوع من القسر ، لانه كانسان حر ، كان يخضع للقوانين التي وضعها هو بنفسه • ولذلك كان يضحي بأملاكه وأهوائه وحياته في سبيل واقع هو واقعه الروحي • ولكن ما ان تحمل مسؤولية الدولة مستبدون حتى تحول نشاط الفرد الى منافعه الفردية ، وهو نشاط متناه بالضرورة لانه لا يستهدف وجودا كليا أو فكرة سامية • أما الدولة فقد أصبحت في نظره قوة خارجية يحاول أن يستخدمها لمنافعه الذاتية • وعندما انهارت هذه الحرية التي كانت تملأ حياة الفرد وتملأ نشاطه أخذت فكرة الموت طابعا مخيفا لانه أصبح موتا في سبيل لا شيء • لذلك لجأ الى مطلق خارج عنه يعوضه عن المطلق الذي فقده • ومع ذلك فقد ظل انسانا ممزقا عاجزا عن التضحية بحياته في سبيل شعبه • ان أسمى مطلب من مطالب الانسان ، في رأي هيجل ، هو أن يكون حرا ، أي أن يعين بنفسه قاعدة سلوكه • فلا بد للقوانين التي يخضع لها أن تنبع من أصالته الخلقية والا استحال الى عبد لقسر خارجي وبالتالي الى عبد لاهوائه يغرق فيها مأساته العميقة • والنتيجة الحتمية لذلك مسطورة في منطق التاريخ • ذلك أن الشعوب الحرة التي يتعانق فيها العقل مع الواقع والتي يشعر أفرادها بنشوة السعادة وفيض الحيوية سوف تحل عن طريق الحرب محل الشعوب المنحلة ، فتندثر هذه الاخيرة بعد أن يحكم عليها التاريخ بضرورة الاندثار •

لقد احتفظ هيجل خلال نمو فلسفته بفكرة روح الشعب ، على أنها تجسيد للروح الكلية في تطورها التاريخي ، وبفكرة الحرية على أنها تناسق بين ارادة الفرد وبين ارادة الامة ، وبفكرة الشعور بالشقاء على أنها نتيجة لفقدان الحرية وانحراف لطاقة الانسان الابداعية نحو المنافع الشخصية العابرة • ولكن مفهومه للحياة الاجتماعية والسياسية لم يعد يتعلق بالنظام اليوناني القديم ، وانما تجاوزه نحو تمثل لخصائص العصر الحديث • فالنزعة الفردية مظهر عام من مظاهر هذا العصر ساعدت على نموها الديانة المسيحية في أوروبا عندما نشرت مبدأ الذاتية المطلقة ونادت بأن يرد الانسان لقيصر ما لقيصر ولله ما لله • وبعد أن وعى الانسان قلمته المطلقة أصبح غير قادر على أن يجد مطلقه في المدينة الارضية • ونتج عن ذلك أن أحس الفرد بدافع التمرد ضد السلطة المطلقة للدولة • ومن هنا رأى هيجل أن التوفيق بين الارادة الجزئية والارادة العامة لا يمكن أن يتم مباشرة ، كما كانت عليه الحال عند قدماء اليونان ، بل لا بد لذلك من وسيط • والمقصود بذلك أن على الدولة التي تمثل الارادة العامة والتي تمثل جوهر الفرد في وقت واحد أن تفسح المجال لنمو الحرية الداخلية عند الافراد • فهي بذلك تحقق نفسها عن طريق حريات أفرادها • ذلك أن مبدأ المنفعة الفردية يستطيع ، في نظام تقسيم العمل ، أن يحقق الفائدة العامة للشعب • وعن طريق هذا التأثير المتبادل بين الفردي والكلي يمكن أن يتحقق نوع من التوازن والانسجام بين الفرد والجماعة •

هكذا يعود هيجل الى التوفيق بين العقل والتاريخ بحيث تصبح الحرية قائمة في هذا التوافق ، بين ايمان الانسان بقيمته المطلقة وبين نشاطه الذي يتكامل مع نشاط الآخرين ، في الوطن الواحد •

بديع الكسم

المغرور الأدبي

بقلم: الدكتور جميل سلطان

ليست الانسانية غير قلب وفكر، وتجربة واحساس والافصاح عن كل أولئك منوط بالقلم واللسان فهما المرآة الصادقة ، والترجمان الامين ، وبمقدار ما تصفو صفحة المرآة ، ويعذب كلم الترجمان ، ويروق المظهر والاسلوب ، ويشوق المخبر والمضمون ، بمقدار ما يتوافر ذلك للقلم واللسان ، يكون أداء المهمة الصق بالحسن ، وأدنى من الكمال، ويكون البناء اللفظي والمعنوي في نطاق الابداع والخلود .

هذا البناء الذي يشترط فيه حسن المخبر، وحلاوة المظهر ، ونسميه العبارة الادبية ، أو البناء الادبي ، هو الذي ينبعث منه السحر فلا نقوى على الانعتاق منه ، وهو الذي تتعلق به القلوب فلا تطيق أن تفلت من أسره ، ولعمري ان للادب على الناس لحكما فيه سحر وأسر ، وفيه متعة ولذة ، ان للنفوس عنده استسلاما وخضوعا ، ولها به محبة وتعلق ، ولن ترى محبوبا يفتدى ، وآسرا ويشتهى وقاهرا يتمسك بأهدابه ، ومتحكما ويتهاوى في رحابه ، مثل الكلام الذي يبهر لفظه ومبناه ، ويسحر مضمونه ومغزاه ، تملؤه التجربة ، ويفيض بالاحساس ، ينطق به الفكر ، ويفصح عما في القلب .

ذلك هو السحر والاسر ، ينتزعك من نطاقك الذي كنت فيه ، ليضعك في الاطار الذي أعده لك ، يجذبك من أعماق تفكيرك، ومن جذور اعتقادك ليصرفك في سبيله المتمنى ، ونحو غايته المرجوة ، فهو كالرقى والتعاويذ في البيئة التي تألف السحر والكهانة ، وكالهدي والرشاد في الطريق التي يلمس منها الخير والسعادة : أولم يك جانب منه في الجاهلية سحرا على لسان الكهان والمتألهين، ثم كان في الدعوة الخالدة الى الخير سبيل الهدى للتائهين والحائرين ، أولم يوقع جبابرة الرأي في الدهشة والاضطراب حين اقتحم عليهم معاقل الفكر ومعاقد الايمان ألم يتلاق عنده المعاندون للتوحيد حين أصغوا الى أطيب



الحديث وأحسن الذكر ، وهم في ستار من الليل كثيف؟ ألم يكشفهم بالنور الذي حاموا من حوله ، ويصرعهم بالكلم نفذ منهم الى الاعماق . هذا أحد جبابرة الضلال يستمع الى الكلم الآسر من الادب الخالد فيحار في أمره ويتيه في تقديره .

فلقد مر (الوليد بن المغيرة) بالنبي (ص» وهو يقرأ سورة « حم » . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (الى آخر ما تلا من حم السجدة) حتى اذا سمع (الوليد) من عذب هذا الكلام ما أقامه وأقعده ، وهو المغرق في الكفر ، المسترسل في الضلال ، أتى قومه يقول لهم لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما يقول

هذا بشر ، ثم قال وقد أخذته الحيرة من هذا الكلام العذب ، وأمسك الكفر بخناقه فلم يفلته : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه قط يخنق ؟ قالوا لا والله ، قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا لا والله . قال فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط ؟ قالوا لا والله . قال فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن قط ولقد رأينا للكهنة أسجاعا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا لا والله . ولكن **ما هذا القول الذي يقول** ؟! ففكر الوليد في نفسه المظلمة ، ونظر في سحر هذا الكلام وعذوبته ، وما يفعل بالنفوس التي تقبل على نوره وهدايته فامتقع لونه ، وحارت كبرياؤه ، وقال ما هو الا ساحر . فذلك قوله تعالى عنه : انه فكر وقدر (هيأ الكلام في نفسه) فقتل (لعن) كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر (تغير لونه) ثم أدبر واستكبر (عن الايمان) فقال ان هذا الا سحر يؤثر (أي ينتقل من غيره) (المدثر : ١٨ـ٢٤) .

على أن للكلام البليغ في النفس الطيبة الكريمة أثرا أجمل وخاتمة أطيب اذ تجد فيه الراحة والسعادة ، حين يأخذ بيدها الى التسامي عن الدنايا والترفع عن الاهواء ، فهذه نفس كريمة تتمثل في عمر بن الخطاب كانت في الجاهلية عنيفة قاسية ، وجبارة عاتية ، أخذت بالسحر الحلال والكلم الطيب ، فانقلبت في الاسلام حليمة حانية، تذعن للخير ، بعد أن كانت تقصد للشر .

كان عمر (رض) ينقم على الدعوة الجديدة ويتعقب الدعاة اليها ، حتى بلغه أنها تسربت الى دار أخته، فقصد اليها ليبطش بها وبزوجها ، ولكنه لم يكد يستمدح الى أحسن الحديث وأطيب الذكر ، ولا يستمع الى الصحابي الذي كان يقرىء الزوجين سورة (طه) حتى اقتحم الدار، ورضي أن **يتطهر ويتوضأ** ليستطيع أن يقرأ ما في الصحيفة ، وبهره ما وجد فيها وشرح الله صدره بالكلم الطيب والهدى الرفيع، فانكفأ الى منبع النور يلتمس الخير ويبذل دونه ما يستطيع . ذلك هو السحر الحلال من بليغ القول وروائع البيان ، وذلك أثره ان كان يدعو الى توجيه سام وهدي رفيع ، وهو هو الادب ، كلم طيب في الشكل والمضمون ، يتعاون فيه القلب والفكر، وتملؤه التجربة والاحساس ، ويستهدف المثل العليا التي تحمل الخير للناس قاطبة ، وليس هو باللفظ المهلهل، والعبارة الهاوية ، ولا بالفكر اللاهي والقلب الغافل ، ولا بالعبث للبارقة السانحة والشعور الكاذب .

ومن هنا كان الادب الصادق مهنة الملهمين ، ومحنة الزائفين ، هو فن ما أحسب في الفنون ما يدانيه ، مراسه أشد مراس ، وثقافته أوسع ثقافة ، وزمن التهيؤ له أمد الازمنة ، وتخير الاكسية والالوان له أصعب تخير ، لا يكتفي منك بأن تستمع لانغامه فتطرب ، ولا ان تنظر لاشكاله فتعجب ، ولا ان تقف عنددماه فتسر ، وانما ينشد أشياء أبعد من ذلك وأوسع . ولا ترتضي أنت منه أن يحدثك بما يسحرك فحسب ، أو أن يعجبك بما يقهرك فقط ، وانما تطلب منه أن يأتيك بأفضل من هذا وأرفع فاعجب لفن نعطيه المقادة عن هوى ، ونخضع له عن رضا، وكما زاد أسره وقهره ، كان أثر الينا وأحب وأعذب وأطيب ، وكلما كان أسمى وأرفع ، كنا له أخضع وأطوع وهو فن تختلف عنده الطباع ، وتتباين فيه النوازع ، وتتحكم به الاذواق ، للثقافات ميزان توزن فيه جوانب منه ، فترجح كفة الفن أو تشيل بمقدار ما في الثقافة من أصالة وما تحمل من خير ، وللمكتسبات والعادات والبيئات مثل ذلك من هذا الفن، ومن هنا اختلف الاعجاب بما يكتب ، وتباينت الاحكام على الادباء ، وكان لكل صاحب أدب أنصار معجبون ، ودعاة مؤيدون ، أو كان له قراء لا يتحمسون ، أو مناوئون منكرون .

ولقد يؤيد المؤيد من أجل الصورة والشكل ، أو للمضمون والمغزى ، ولقد ينكر المنكر لشيء من هذا وغيره ولذلك ضل من ينشد الرضا عن أدبه عند كل أحد ، وتعب من أحب الثناء عليه بكل لسان ، على أن ثناء من يثني ، أو عيب من يعيب يجب ألا يعتمد على الذوق والاعجاب وحدهما ، فان ذلك مقياس متغير ، ولذلك وجب أن يعتمد في الحكم على شيء مشترك هو في الادب أساس لا يقوم البناء الا عليه ، ولا ينهض الا به : ذلك هو اللغة القوية المترعة، أو الكلام الرصين المملوء فالهلهلة في الالفاظ ، والضعف في العبارة ، والركاكة في الكلام ، لا تقيم أدبا ولا تعرف بأديب ، والخلو من الممتع المفيد ، والفراغ من التجربة الانسانية ، وانعدام الاحساس القلبي أو الفكري ، والانصراف عن المثل الكريمة لا يقوم الادب ولا يوجب الخلود .

ولقد يكون في هذا المقياس شيء من القسوة والصرامة ، وربما لم يطب في ميزان فريق ، ولكن ما الحيلة في فن ورثناه ، على هذا الوصف ، على تسلسل الاجيال من قرابة خمسمائة والف عام ، تعرض خلالها للشدة والرخاء ، والتثبيط والتنشيط، والانكار والايثار والمحافظة والتجديد ، والتصون والانطلاق ، وانصبت فيه روافد من الثقافة ، شرقية وغربية ، وظهرت فيه لوامع من الانوار والاشكال ، وتعددت فيه الصور والمضامين ، وخبر الدنيا وخبرته ، فقاوم وخضع ، وثار ورجع ، حتى لكأنه الجسم الفاتن المجرح ، أو الصفحة الواسعة لم يحجب عنها خط ، أو الساحة الرحبة مر بها كل ذي أثر ، ثم خرج ـ هذا الفن ـ من كل أولئك على توالي الاعصار والادهار ، بركنيه اللذين بهما سلم ،

الفصحى والعامية

ناجي

أمام اعتبارات القومية والانسانية والتطور

بقلم : محمد المبارك



لقد سار ركب الامة العربية في هذا العصر شوطا بعيدا وعاد الى العربية الفصحى عزها ونالت من القوة والغنى والحظوة عند العامة والخاصة ما لم تنله من زمن طويل ومع ذلك لا يزال بعض الناس يسألون عن اللغتين الفصحى والعامية أيهما أعون على التقدم والرقي وايهما أسهل على الناس وأقل كلفة وجهدا ، لقد كانت هذه الاسئلة منذ نحو من نصف قرن كثيرة تنتظر الجواب ولكن الحياة نفسها في تتابع احداثها وتطورها أجابت على أكثرها وقدمت لمشكلة ازدواج اللغة بين فصحى وعامية كثيرا من الحلول .

واقعنا اللغوي :

ولو اننا نظرنا الى الواقع قبل ان نلتفت الى اجابة السائلين على أسئلتهم لوجدنا ان اللغة الفصحى قد غزت اكثر مجالات الحياة فأصبحت اداة التعبير عن الفكر في مراحل التعليم كلها من الابتدائية حتى العالية فيما يكتب ويقرأ على الاقل وفي ميدان الادارة والسياسة وفي أكثر ميادين الصحافة والنشر والتأليف ، وفي الندوات العامة والخطب السياسية والمؤتمرات الشعبية ، وقد غزت أكثر طبقات الامة وتقاربت بذلك الاقطار العربية على اختلاف لهجاتها العامية ، وأصبحت فيها كلها لغة التأليف والكتابة لكل ما ينشر بين الناس ولغة التدريس والمحاضرة والاعلان والدعاية والاخبار .

والامر الثاني الذي نلاحظه هو ان العامية نفسها لم تبق في مكانها منذ نصف قرن حتى الآن ولم يعد مدلولها واحدا فقد تطورت واقتربت من الفصحى في كثير من خصائصها في حروفها وأصواتها وفي مفرداتها والفاظها وفي جملها وتراكيبها فاسلست للفصحى قيادها ولا تزال كذلك في تطور مستمر وانا لنشهد في كل يوم سقوط كثير من الفاظها صرعى من غير معركة لتحل محلها الفاظ الفصحى بمستواها الارفع ودلالتها الادق وجرسها الاحلى وبذلك أعلنت العامية خضوعها واستسلامها دون أن تستأذن في ذلك حماتها وانصارها وكأنها بتصرفها هذا عزلتهم عن الوكالة التي يدعونها فكانت أبر بأمها الفصحى وارفع من ان تجعل بينها وبينها خصومة تحتاج

وعليهما سما ، وبدونهما لم يخلد ، وهما ركنا الشكل والمضمون ، أو اللفظ والمعنى ، بما حملا على الدهر من الصفات التي تمتع وتنفع ، وتبني وترفع ، حتى كان مجموع ذلك هو الكنه الحقيقي في خلوده ، والروح الخالدة في تأبيده .

فاذا كان في الماضي عبرة للمستقبل ، وكنا سلسلة يأخذ بعض حلقاتها ببعض ، من بعيد الازل الى سحيق الابد ، وكان السير التاريخي للادب في هذا الاتجاه ، وما عداه هدر مهدور ، وكنا نجد في الادب أكبر عون على البناء والانشاء ، والتوجيه والتخليد ، ان كان ذلك ما نرى ، فاننا نفهم اليوم أدبنا في هذا النطاق من التحديد ، كما نوجب أن يكون الحديث عن جميع مايضمه من ضروب القول وفنونه ، في اطار المقبول المرضي من صحيح اللغة ومستقيم الكلام ، مع غنى التجربة ، واشراق الفكرة ، وامتاع النفس ، والتوجيه الى الخير ، سواء في ذلك النثر والشعر ، وسواء أكان ذلك في القصة أم المقالة ، أم في غيرهما من ضروب البيان وأفانين القول .

فيها الى وكلاء يختلقون الخصومة ليجدوا لانفسهم عملا ٠

اللغة والقومية

ان أبرز ما في اللغة انها عامل أساسي في تكوين رابطة مشتركة بين أفراد الامة الواحدة ولذلك اعتبرت عنصرا أساسيا في تكوين القومية ، فان اللغة في الحقيقة تتضمن مفاهيم وأفكارا وأحكاما وعواطف وهي ليست الا قوالب لهذه المفاهيم والعواطف وباستعمالها تنغرس هذه المعاني والمفاهيم في نفوس أبناء الامة التي تتكلم بها وتنتقل تلك الاحكام والعواطف بين أفرادها فتطبع عقولهم بطابع واحد وتجعلها تسير في طرائق متشابهة ويشترك أدبها وتراثها في هذا التكوين ويؤدي ذلك الى تكوين عقلية واحدة ومشاعر متشابهة في أبناء الامة الواحدة ٠

وتكون اللغة كذلك وسيلة لارتباط أجيال الامة المتعاقبة بعضها ببعض واشتراكهم في التفكير والشعور وذلك هو أثر اللغة في تكوين الجماعات القومية والامم ولذلك كانت كل لغة مرتبطة بأمة وكان لكل أمة لغة مشتركة بين أفرادها ٠

ولو نظرنا الى اللغة العربية من هذه الناحية لوجدنا الفصحى لا العامية هي التي ربطت بين البلاد العربية المتباعدة حتى في عصور كانت منفصلة بعضها عن بعض وهي التي حفظت هذه الرابطة المشتركة في تراث ثقافي واحد وفي ثقافة حديثة يستفيد بعضها من بعض في التأليف والتعليم والتشريع والادب والفن ومن أجل هذا كان دعاة العامية هم الاقليميون والشعوبيون والراغبون في تقطيع أوصال البلاد العربية والقاصدون الى فصل شعوب الامة العربية عن ماضيها وتراثها وأدبها وثقافتها وحضارتها ٠

ان العامية مرحلة ماضية يريدون تثبيتها للعودة الى الوراء الى الحقبة التي كانت فيها البلاد العربية متباعدة منفصلة والفصحى هدف يسير العرب نحوه بسرعة كبيرة وخطى ثابتة ، فالدعوى الى العامية دعوة الى العودة الى عصور الانحطاط والتردي والضعف والاستعمار والانقسام والدعوة الى الفصحى دعوة الى التقدم والمستقبل والقوة والتحرر والوحدة ٠

اللغة والانسانية

وهناك اعتبار آخر عظيم الشأن كبير القيمة وهو أن لكل لغة من اللغات قدرة انسانية تتناسب معها فقد خصت بعض اللغات ومنها العربية بالوصول الى مستوى انساني في تعبيرها عن الافكار والمفاهيم والمعاني الانسانية العامة ٠

فقد مرت اللغة العربية بتجربة حضارية هامة جدا وذلك انها استطاعت أن تكون لغة لثقافة انسانية ولحضارة انسانية لشعوب كثيرة قبلتها على انها لغة فكرها وثقافتها ولغة حضارتها كما كانت اللاتينية في بعض العصور وكما هي حال الانكليزية في هذا العصر ٠

فلقد كان المدى الحيوي للغة العربية واسع النطاق شمل شعوبا كثيرة كانت العربية لغة ثقافتها الرفيعة وكان لها بذلك تأثير في لغات تلك الشعوب لا يزال أثره باقيا حتى اليوم ، وبلغت من النفوذ الثقافي والقدرة على التعبير الانساني حدا عظيما لم تبلغه الا قليل جدا من اللغات ٠

فهل يمكن أن يقال مثل هذا عن العامية الشامية او اللبنانية او المصرية او المغربية ، ان مثل هذه المقارنة وحدها تكفي لادراك سخف الدعوات الشعوبية في اللغة او ادراك خبث مراميها ٠

اللغة والتطور

واعتبار أخير لا بد من النظر فيه ذلك أن اللغة اذا كانت ثابتة تنتقل من جيل الى جيل دون تغيير أو تبديل فكيف يمكن أن تؤدي أغراض الحياة المتطورة وتبدو صفة الثبات هذه من الصفات المذمومة التي تمنع الحركة والرقي والتقدم ، ان هذه المشكلة محلولة بالنسبة الى اللغة العربية فان هذه اللغة قد أوتيت قدرة عظيمة على التطور المستمر وذلك بطرق عديدة أبرزها طريقتان : احداهما اشتقاق صيغ جديدة من مادتها القديمة الغنية فقد اشتققنا في هذا العصر ألفاظا كثيرة مثل : البراد والثلاجة والدراجة والطائرة والسيارة والقذيفة والمحرك والمضخة والجرار والاذاعة والمؤسسة والدائرة ، وهي كلمات كثيرة جدا ولا تزال في ازدياد مستمر في جميع مجالات الحياة النظرية والعملية ؛ والطريقة الثانية تغيير مدلولات الالفاظ ونقلها من معانيها القديمة الى معان جديدة بطريق المجاز أو التخصيص أو التعميم وهذا باب واسع جدا كالجريدة والصحيفة والبرق والهاتف والجامعة والوظيفة والسائق والمعمل والمطبعة ٠

وهناك طريقة ثالثة ولكن لا يلجأ اليها الا حين الضرورة وحين تعذر الاشتقاق أو نقل الالفاظ من معنى الى معنى لان الاكثار منها يفسد أصالة اللغة وهي طريقة التعريب وذلك بأن نصوغ الكلمة الاجنبية صياغة عربية ونستعملها كأن تقول مثلا التلفز للتلفزيون اذا تعذر أن نجد لفظا مناسبا كالرائي أو الاذاعة المرئية أو الناقل أو المبصار أو غيرها وما أظن ذلك متعذرا ٠

تلك هي لغتنا امام معاني القومية والانسانية والتطور تحقق لكل منها نصيبه تسير في تطورها برعاية الله معنا ونحو أهدافنا مستوفية عناصر القوة والحياة والاصالة والتجدد نستمسك بها استمساكنا بأنفسنا ونعتصم بها ونرى الخروج عليها والعزوف عنها عقوقا من محبيها وخيانة من شانئيها ٠ ألا فليعلم أولئك الذين يتحدثون بالعامية وما يشبهها من الادباء والنقاد في الندوات والاذاعات وخاصة في الموضوعات الثقافية أن الشعب العربي يعتبر عملهم هذا في أحسن الاحتمالات عجزا أو عقوقا فليروضوا ألسنتهم على الفصحى أو ليرجعوا الى البر بلغتهم ٠

البيت الأصفر

قصة بقلم : محمود الخطيب



كان احساسه بقيمة حياته يفتر شيئا فشيئا ٠٠ اذ أنه كان يدرك أن ثمة صخرة لئيمة ستجثم فوق صدره يوما ما ٠ ومع رتابة هذا الشعور القلق كان اليأس الذي يملأ صدره يتناهبه بشكل هستيري ويشعره بأن الحياة تافهة مريضة ، وبأن كل ما يدور في عالمه أصفر صعلوك٠

بينما كان يتخيل هذا المصير ، بالنسبة لحاله ، كان يزفر بكل قوته ويبكي في نفسه آلاف المرات ، ذلك لانه كان يدرك أن عينيه العسليتين ستتجمدان يوما بشكل زجاجي وأن المخاط الذي في أنفه سيصبح جامدا كالشمع وثمة ديدان كثيرة جائعة ستحبو – حتما – الى عينيه لتنبش وجهه ٠

زفر « ظافر » بقوة ، وتشبث بالمقبض تشبثا مجنونا كمن أصيب برصاصة ٠٠ وأدار عينيه في جو المكان بعصبية فاكفهرت عضلات وجهه باشمئزاز ، ثم أحس من شدة الالم بأن سافلا ما قد وطأ رأسه ٠ وبصق على الارض بصقة عريضة ثم نظر اليها بضع نظرات وتابع عمله على « المقدح » ، وكان قد تذكر أثناء هذه اللحظات لو أنه أطلق هذه البصقة بقليل من القوة لاستطاع أن يختبر بها قوة نفسه ومدى وجوده على قيد الحياة ، لكنه ما لبث أن حدق اليها من جديد وأخذ يجترها في رأسه فتأفف منها وفركها بقاع قدمه ٠

* * *

عندما دقت صفارة المصنع كانت عيناه لا تزالان تتابعان « ريشة » مقدحه ويده تضغط على المقبض بقوة وبعض مياه حليبية كانت تندلق على سطح الحديد ٠ ترك كل شيء ، وضغط على اصبع التوقيف بملل ، ثم أخذ قطعة قماش قذرة وراح يمسح وجهه وهو ينفخ ويحدث نفسه : لو قدر لنا هذا المجهود الذي نبذله ، على كوننا انسان ، لكان حراما أن نموت ٠

وبدأ مسيره بخطوات متعثرة وانخرط بين صفوف العمال ونفسه يتناوشها الكلل ، بينما أخذ يشعر برتابة أيامه التي يعيشها مهملة مبتورة وبقيمة هؤلاء الناس التافهين ٠ كانت همسات العمال التي يتهامسونها بين بعضهم البعض تبعث الى نفسه الالم الشديد وتدفعه الى أن يتساءل عدة مرات : لو أن أحدا من هؤلاء نادى اسمي الآن لاحسست أن لي قيمة ٠٠ لكن علاقة الانسان بالانسان تافهة ٠٠ هه !٠٠

وأخذ يتلفت حوله ببطء فألفى جموع العمال تتزاحم على الطريق كأسراب الذباب وطنين أصواتهم يتناثر في الجو كجراثيم السل ، وقد أيقن آنذاك أن كل هذه الجموع تعيش بلهاء لا تدرك معنى العيش ٠

عندما نظر الى سور المصنع ورأى الحراس على بابه ثم دقق النظر في الطريق الماشي أمامه شعر أنه يمشي على حافة العدم ٠٠ وأن لا مخرج من هذا المأزق الا من ذلك الباب المحروس وأن حرية العيش قلما يرضاها لك امرؤ داخل سور ٠

أراد أن يهدم الاشياء ، ويحطم تلك الزوايا المحدودة وينطلق بعنفوان أصيل ، لكنه سرعان ما وقع وتحطم ٠

كانت عيناه تدققان النظر في كتف الذي أمامه وتتابعان ذبابة تتحرك في منطقة محدودة وتسير سيرا بطيئا متثاقلا وعندما وقف على الباب كان ما يزال ينظر الى الذبابة نظرة غريبة ٠٠ وأخذ ينفخ عليها نفخات خفيفة فلم تتحرك من مكانها لكنها كانت تصارع التيار بأجنحة ضعيفة وتقاوم بحركة من ذراعيها ٠ على أنه تطلع الى الحارس بعين صارمة ، فجمدت ملامح الحارس وقابله بالمثل ثم هز شرابه بشراسة ٠ وعندما خطا خارج الباب نظر الى كتف الذي أمامه من جديد وعين مكان الذبابة فوجدها قد طارت ٠٠ أدرك آنذاك ان الذبابة كانت تبحث عن الحرية ، وقد صارعت التيار وقاومت بكل قوتها لانها لا تريد أن تبقى داخل سور ٠

هز « ظافر » رأسه وتمتم بكلمات لئيمة وأخذ قلب الطريق وراح يتفرس وجوه الناس المارين من حوله بنظرات ثاقبة ، وقد شعر آنذاك بأن اثنين قد مرا عنه ونظرا اليه بقسوة فالتفت خلفه لكي يتأكد منهما ، وتبعهما ببصره لمسافة معينة لكنه لم يستطع ٠

* * *

ذكر « ظافر » أنه في آخر يوم من الاسبوع ٠٠ وأنه على موعد في كل يوم كهذا مع زوجته « هيام » لقضاء فترة خارج البيت ٠ وكان شعوره بالنسبة لزوجته لا يقل عن شعوره باليأس الذي يملأ صدره ويجتاح أواصره ٠٠ كان يعلم أنها ستموت هي الاخرى ، وأن عينيها الجميلتين ستصبحان كالزجاج وشفتيها الرطبتين ستتحولان ترابا ، وهذا الريق اللزج الذي يبللهما سيصير أكيدا دودة تمتد حتى الحلق ٠ أما « علاقته » الروتينية بها فقد أصبح يأنفها بشكل مقيت ويبغض كل شيء فيها ٠٠ ويتأفف من الليل الذي يلفه ساعات طوال ٠

أراد أن يتمرد ويعيش حياته صاحي العقل وتمنى لو أن جميع أيامه تنقلب نهارا لكي يستطيع أن يظل فاتح العينين ، ينظر الى الاشياء جميعا ٠ وقد كره ظلام الليل الذي يلفعه بين آونة وأخرى لانه بالنسبة اليه وحش مقرف يبعث الى النفس خدرا ممقوتا ويغلفها بأطار من الموت المؤقت ٠

عندما وصل الى البيت واستلقى على سريره كانت علامات التساؤل التي تمتلكه أثناء الطريق ما فتئت تسترسل في مخه بشكل مريب وتزيد من يأسه ، وأخذ يقلب الاشياء ويستوضح صورا راهنة من مرارة شعوره ٠٠ ان الانسان بطبيعة الحال ميت في دنياه ميتة بدائية ولكن على نطاق أوسع ٠٠ فهذا البيت الذي يغلفني بأربع جدران هو بمثابة قبر كبير بني بناء عصريا فجعل له باب ونافذة ٠٠ ليت الذي بناه يدرك كيف سيموت في المستقبل ٠٠ وكيف سيدفن في قبر من بناء غيره ، لا باب له ولا نافذة ٠ وأحس « ظافر » في هذه اللحظة الحاسمة أنه يتفجر غيظا فطرق يده في قاع السرير وقفز من موضعه واقفا ثم راح يقول كمن أصابه جنون :

ـ لا أريد أن أموت ٠ لا أريد أن أموت ٠٠

وكانت زوجته في تلك الدقيقة قد وقفت قبالته وحدقت اليه بعينين قاسيتين ، بينما أخذ هو ينظر اليها شزرا ويتذكر في نظراتها نظرات الشخصين اللذين مرا عنه في وسط الشارع ولم يستطع التعرف على شخصيتيهما ٠٠ وقد أحس أن في تحديقها اليه وخزا لشعوره ، وأن الجهل الذي يخيم عليها بالنسبة للحياة والموت ما هو الا غشاوة رقيقة ستنقشع يوما عندما تنشف عيناها وتبطل أهدابها عن الحركة ٠

تخيل كل هذا ، وراودته حلقات هستيرية هزت مخه بعنف ، ودارت في بدنه قشعريرة سمجة وقد شعر آنذاك أن أزوف الساعة قد حان ٠٠ وأنه لا بد سيموت ٠

* * *

وبينما غادر البيت مع زوجته كان الاصيل قد انزلق نحو الوجود والطقس قد اعتدل بنسيمات رعناء أخذت تهب كحمى الملاريا ٠ وراح يتحدث مع « هيام » والشعور القلق الذي يدور في عروقه ما زال ينبعث من كل حواسه : آه ٠٠ لماذا نخلق صغارا ثم نكبر ونكبر ، حتى اذا ما أصبح لنا قيمة وجعلنا للانسان والروح قداسة متنا ٠ أتمنى لو أنني ولدت بجسد وروحين ٠٠ حتى اذا فقدت واحدة عشت بقية حياة الاخرى أبكيها ٠ اننا بلهاء لا نعرف قيمة الروح ٠٠ نتخبط في جهل ، ونكتفي ، اذا فارقنا عزيز ، بارتداء السواد !٠٠

وكانت زوجته أثناء حديثه غير منتبهة له ، فقد سئمت هذا التشرد الذي يلفه وأخذ منه كل وعيه ٠ وسمع «ظافر» وهو مسترسل بكامل قواه شخصا يصيح في وسط الشارع :

ـ دعوني أقتله أنا ٠٠ فلقد وصف لي أحد الرجال أن أشرب دمه مع قليل من السكر ٠٠

فقهقه واحد من المارة بصوت مرتجف وقال بسخرية:

ـ لماذا وصف لك أن تشرب دمه ؟

فأجاب وهو مرتبك :

ـ ان بي مرضا لا يشفيه الا دم هذا اللعين ٠٠

وعندما التفت « ظافر » خلفه وجد نفسه أمام مشهد كاد يموت من أجله ٠ وقد تعلقت عيناه بأربعة من الشبان يحاصرون قطا أسود ضعيفا ، حول جدار عتيق ، يريدون قتله ، وكان القط آنذاك مصرورا يرتجف ويموء مواء مخنوقا فأخذ واحد منهم يقلده باستهزاء :

ـ ماو ٠٠ ماو ٠٠

وتحرك القط محاولا الفرار ، غير أن الشبان سدوا في وجهه الطريق ٠٠ ورفسه أحدهم بقدمه ٠ فقال آخر :

ـ اتركوه ، اتركوه ٠٠ لقد حدثني أحد أصدقائي أن مزج اللبن بالدم يشكل لونا جميلا ٠٠ فمن منكم في بيته لبن ؟٠٠ أريد أن أرى العملية بعيني ٠٠

فقال الذي بجانبه :

ـ أنا ٠٠

وترك مكانه ، وأشار الى رفيقه أن ينتبه ، ثم ركض الى بيته القريب وهو يتمتم بسرور :

ـ سوف تموت أيها القط بطريقة تعجبك ٠٠ لن تتألم منها أبدا ٠

وعندما عاد ، كان يحمل بين يديه وعاء مملوءا لبنا، فأخذ يقول قبل أن يصل بخطوات :

ـ ها أنا أتيت ٠ أين أضعه ؟

فأشار اليه أحدهم وقال :

ـ انتظر قليلا ٠٠ أعطني هذا الوعاء واستلم مكاني ٠٠

وأخذ الوعاء ودار حول الجدار ثم وضعه على مرأى قريب من القط واختبأ من الناحية الاخرى بعد أن أمر الباقين بالمحاصرة جيدا وعدم اخافته ٠ وحمل بين يديه حجرا كبيرا ورفعه فوق رأسه في نقطة تتساوى مع وعاء اللبن ٠٠ وأخذ يموء كالقط بصوت مخنوق :

ـ ماو ٠٠ ماو ٠٠

كان القط في ذلك الوقت ما زال مشدودا الى نفسه ويتطلع الى الوعاء بعينين خائفتين وأذناه ترتجفان مع جلدة رأسه ٠ واقترب شخص منهم من القط وراح يمسح يده على ظهره بنعومة مرتين أو ثلاثة ويشير الى الوعاء قائلا :

ـ بس ، بس ، بس ٠٠

على أن القط بقي متوجسا ، ينظر الى الشاب بخوف واستعطاف ، ويحرك أذنيه مسترحما ٠ بينما دأب الشاب يمسح ظهره بلين ٠ ولما هدأ القط وشعر أن الجميع ينظرون اليه ببرود تململ في مكانه ونظر صوب الوعاء بفضول ، فدفعه أحدهم بصوته من جديد :

ـ بس ، بس ٠٠

وقام القط من مكانه وهز أذنيه بذبول ثم ماء موءة واحدة وعيناه لا تزالان مغروستين في أديم الوعاء٠ وهمس أحد الشبان في آذان الآخرين :

ـ هس !٠٠ أتركوه على خاطره ٠٠ لا تزعجوه ؟٠

ومكثوا مسمرين وأعينهم تتابع الفريسة بحرص ، بينما مشى القط بخطوات بطيئة نحو اللبن ووقف عنده ثم كرر عليه نظرة فضولية ، ومد فمه حتى لامس السطح ٠٠ وأخذ الشبان الثلاثة يتبادلون النظرات الساخرة حول مصرعه ، المشيرة بأن : وقع !٠٠ بينما أمعن الرابع النظر حول المكان وركز يديه المتيبستين حول الصخرة الصغيرة فوق مساحة الرأس ، وكانت أنفاسه في تلك اللحظة ترتجف محمومة وعروق رقبته متشنجة بغضب ٠٠ حتى اذا ما استفحلت الفريسة في لعق اللبن أنزل يديه قليلا من المسافة ٠ وهمس أحدهم في وجهه :

ـ اقتله ٠٠ اقتله ٠٠

وأدرك القط أنه وقع في الفخ فنفض رأسه من الوعاء بعنف ، وتناثرت من جراء ذلك عدة قطرات من اللبن ، غير أن الصياد كان قد أفلت الصخرة فسقطت على رأسه وهرسته ٠

ضحك الاربعة بعد انهاء العملية بصوت عال ونظروا الى القتيل بشكل بارد ، فقال الذي أراد أن يرى مزج الدم باللبن :

ـ حقا انه للون جميل ٠٠

اتبعه القاتل بعد أن غل يديه الاثنتين في صدره بقوة :

ـ هيء ، هيء ٠٠ أنا الذي قتلته ٠٠ لا أحد غيري ٠

وصرخ الذي أراد شرب دمه بعد أن قفز من مكانه وخلع حذاءه ثم ألقى به في وسط الشارع ، وأخذ يركض حافي القدمين ويده تلوح في الهواء :

ـ من يبيعني قطا مقتولا ؟ من يبيعني قطا مقتولا ٠٠ أريد أن أشرب دمه مع قليل من السكر ٠

فقهقه واحد من المارة وسأله باستهزاء :

ـ تريد أن تشرب دم قط مع قليل من السكر ؟

فأجابه بنبرة عالية :

ـ نعم ٠ ان بي مرضا لا يشفيه الا دم قط لعين ٠

في تلك الفترة كان « ظافر » ما زال يحدق الى المشهد بألم ، وقد تسربت من عينيه دمعتان غصتاه في

الحلق .. ونظرت اليه زوجته ببلاهة ثم قالت كأنها تسخر منه :

ـ أتبكي قطا حقيرا ؟..

وأحس أن عقله بدأ يتشاحن . وكان يتمنى لو يستطيع أن يقول لها في تلك اللحظة :

ـ لقد قتلوا روحا ، كان من الممكن أن تعيش أكثر من ذلك .

ومر رجل مسن في الشارع فتمتم بعد أن نظر الى المشهد باشمئزاز :

ـ لعنتم أيها الاولاد .. كيف لطختم الارض بدم هذا النجس ؟

وذكر « ظافر » حينها بأن الصخرة التي جثمت على رأس هذا القط .. ستجثم على رأسه يوما ما .

وشدته زوجته من ذراعه ، غير أنه لم يكن يريد أن يترك المكان . وعندما مشى كانت نفسه تتمخض عن حقد لهذا العالم . ومر عليه أثناء مسيره رجلان رمقاه بنظرات حادة ثم تابعا سيرهما وعيونهما محدقة الى الامام ، وحاول « ظافر » التأكد منهما غير أن زوجته كانت لا تزال تشده وتقذفه بالكلمات .

* * *

بينما زحف الليل على المدينة كان « ظافر » ما لبث يرافق زوجته عائدا بها الى البيت .. وكان شعوره بأن في ايداعها لهذا المكان انما يودعها الى مقبرة لها مفتاح وباب .. وأدرك وهو يقف على العتبة ويده تدور في « الاكرة » بأن الانزلاق عن هذه المساحة سهل جدا وان الاحساس الذي يخامره بهذا الصدد يكون في رأسه صورة حادة المعالم . ارتعش بضيق ، ولفه السأم ، وتأصلت في نفسه عدة تخيلات قبيحة .. فسرت في بدنه شحنة رعناء وأحس أن الليل الذي يجثم فوقه مارد أعور . كاد يخطو .. لكنه ما لبث أن تراجع وقذف بزوجته الى الداخل ثم أعلمها أنه سيعود بعد ساعات . وصفق الباب بعصبية ثم قفل راكضا الى الشارع وعيناه تلطمان الاشياء لطما .. وعقله يحاول الولوج الى كل سر من أسرار حياته .

كان موقنا بأن الموت سيصفعه يوما ، وبأن قدما ثقيلة ستستقر فوق جبهته .. لكنه أراد الهرب من هذا كله بالرغم من أن عتمة الليل بقيت تلاحقه في كل مكان ، وأعين الجدران تنظر اليه باحتقار ، فحاول أن يتخلص من دوامة القلق التي تعتريه ورمى بنفسه على صفحة حائط ، ثم أخذ يلهث كالكلب المريض .

لما رجع بعد منتصف الليل، كان الكلل الذي أضناه قد بعث في جسمه خدرا كالسم . وأحس بأن شيئا ما قد تيبس في قدمه .. وان الشارع الذي يمشي عليه أخذ يمتد أكثر من اللزوم .. وأدار يده في « أكرة » الباب وتمتم بأن لا مفر من دخول هذه المقبرة . وشد باب غرفته الى الداخل ثم وقف يحدق بأعصاب منهكة :

كانت زوجته ممددة في السرير وأنفاسها ترتفع وتهبط بانتظام ، وذراعاها مسجيتان كالميت . وانتفض رأسه في فترة ذهول عندما رأى أن هذه الانفاس ستخمد الى حيث لا رجعة .. وان هذا الجسد المسجى عن كثب لن يضاجع جسمه الى أجل بعيد . والتصق « ظافر » بصفحة الباب التصاقا طبيعيا ، ثم أرسل الى هيكل زوجته نظرة فضولية .. وأحس من شدة التعب بأن نشوة عارمة تسري في عروقه وان بدنه المنهك بدأ يرتعش ارتعاشا متتاليا فازداد حركة .. وتابع نظراته الى هيكل الزوجة باستمرار ثم أخذ تتراءى له صورة لفتاة رآها في المساء تمر في الشارع .. والتهبت عروقه بغضب ثم أحس أن وجهه يعانق الباب بغير وعي .. وتشبث بالخشب تشبثا مجنونا ، ثم اهتزت في جسمه عضلة أو عضلتين ، وأغمض عينيه ، وظل فاقد الوعي لفترة قصيرة ..

* * *

وعندما انفصل « ظافر » عن شعوره أحس بأنه يحتاج للحركة .. ومشى نحو السرير بخطوات متهالكة، ثم ارتمى فوقه بارتخاء . ولاصق جنبه جنب زوجته فألقى عليها نظرة عادية وتنهد من صدره تنهدة عميقة .. ثم بقي فاتح العينين .

الكويت — محمود الخطيب





شعر : أبو سلمى



كلما قلت أطل الفجر غابا
أترى تغدو فلسطين سرابا

واذا الدمع روى عنها الهوى
وجلا صورتها ذابت وذابا

واذا ما الدم روى أرضها
حالت الارض به قفرا يبابا

واذا لاحت على الدرب المنى
داميات نرتجي منها الايابا

مسح الاهل رسومات الخطى
لم نجد خلف المنى الا ترابا

أيها السائل عن داري استمع
ان في أرض فلسطين انتحابا

بحت الارض تنادي شعبها
ثم لما تسمع الارض جوابا

جثم الاعداء ما حول الحمى
وعدا أهلي على أهلي ذئابا

ملأوا الافق حشودا وبنودا
وملأناه كلاما وسبابا

صرخت منا الجراحات عتابا
كيف لا يسمع أهلونا العتابا

سجنوا أهلي وهم من فتحوا
كل يوم للعلى والمجد بابا

مزقوهم وهم من وحدوا
بينهم شعبا ودارا ورغابا

ثم قالوا خوف ان ننسى ألا
بئس ما قالوا افتئاتا وكذابا

كيف ننسى وعلى كل ثرى
دمنا يسري سعيرا والتهابا

وخيالات بلادي ارتسمت
في الجباه السمر الوانا عذابا

صور النكبة في أعيننا
قد حملناها هوانا وعذابا

وبها نبصر أشلاء الحمى
ثم لا نلقى من الاهل صحابا

دمنا يصرخ أنى سرتم
لم يزل يطلب أهلونا الحسابا

نحن من حطم أصنامكم
وجعلنا الحكم للشعب غلابا

نحن من نضر قوميتكم
وعن الاعين مزقنا الحجابا

أورقت أنفسكم من دمعنا
بعدما جفت قشورا ولبابا

ومحونا باللظى عاركم
ثم صرنا سبة الدهر وعابا

ليت شعري ما الذي قدمتم
لفلسطين سوى الوأد عقابا

يا فلسطين أنظرينا نضطرم
قد صهرنا الاحرف الحمر كتابا

وهتفنا باسمك العذب على
كل درب وجعلناه حجابا

باسمك القدسي لاقينا الردى
مثل ما تهوين شيبا وشبابا

ومن التشريد فجرنا سنى
ثم أطلقنا مع الفجر شهابا

وخطانا خضبت كل الذرى
سعر الحقد خطانا والخضابا

نحنُ في النكبة أصفى جوهرا
كلما اشتد لهيب النار طابا

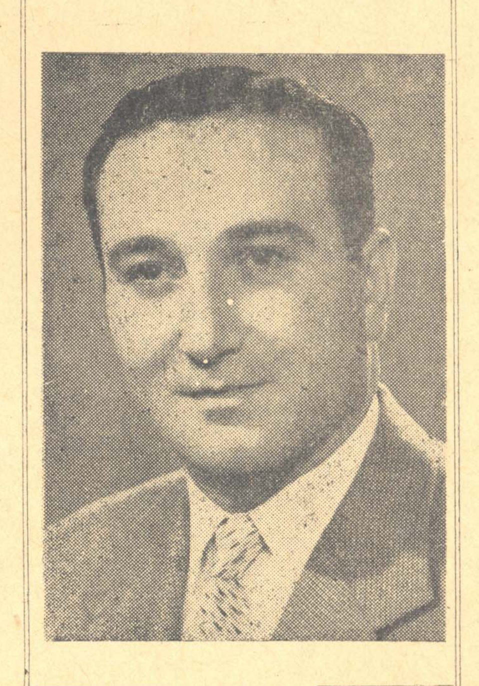
يا أحباي ، أما آن لكم
أن تقولوها صراحا وصوابا

تاجر الاهل بآلامكم
ثم يرجون من الشعب ثوابا

أبو سلمى

الشعر الجديد ثورة في الأدب المعاصر

بقلم :
الدكتور صالح الأشتر



كانت نكبة العرب الكبرى في فلسطين نقطة الانطلاق لعدد من الانقلابات الثورية في العالم العربي ، أطاحت بالعروش والحكام ، ومنحت بعض الاقطار العربية قيادات شعبية واعية ، وتمكنت من أن تفجر ينابيع الامل والتطلع والتفاؤل في النفس العربية وأن تعيد اليها ايمانها الضائع بماضيها وبذاتها وأن تنفخ فيها روح المقاومة والنضال للوصول الى نهاية المأساة مشرفة لا يستخذي أمامها الضمير العربي .

وفي مقالتنا هذه نحاول أن نكشف عن الصلة التي تربط مأساة فلسطين بهذه الحركة الانقلابية في الادب المعاصر التي يسمونها بـ «الشعر الجديد» فنكبة فلسطين هي نقطة الانطلاق أيضا في ثورة الشعر وحريته .. ولكي ندلل على أن (الشعر الجديد) هو ابن شرعي للنكبة القومية ، وضعته في أعقاب الهزيمة ، يجب أن نمتحن طبيعة العوامل التي أسهمت في تكوين خلايا هذا الجنين الثائر ورافقت مراحل ظهوره ونموه .

الشعر الجديد ثورة جامحة على التقاليد الشعرية العربية المعروفة في الشكل والمضمون ، ومحاولة لوضع تقاليد جديدة للشعر العربي .

يقوم بناء الشعر الجديد على وحدة التفعيلة في القصيدة ، وتنويع عدد التفعيلات في كل بيت تنويعا يوافق انسياب المعاني ، وتوزيع الموجات العاطفية توزيعا موسيقيا ملائما ، واعتبار القافية عنصرا عفويا غير متعمد ولا ملتزم ، وبمثل هذه الصياغة الجديدة للشعر تتحطم وحدة البيت ويضيع استقلاله ، وتحفظ للقصيدة وحدتها « العضوية » بتماسك أبياتها وترابطها ، ويتم عند ذلك تحرر الشاعر العربي المعاصر من الاوزان الخليلية وقيودها العاتية ، ومن تحكم القافية الواحدة وطغيانها ، ويكون في وسعه أن ينظم الشعر في قوالب لا حصر لها ، وأن يصوغه صياغة حية متحركة تعتمد على ابعاد الكلمة وعلى طاقتها الايحائية وشحنتها الشعورية وايقاعها الموسيقي .

ولا يكتفي الشعر الجديد بهذه الحرية الفنية في الصياغة ، ذلك أن دعاته يرون في الشعر العربي السلفي (الكلاسيكي) عيوبا في المضمون ، ويريدون أن يتخلص الشعر الجديد منها ، فالشعر القديم عندهم شعر ايجاز وتلخيص واكتفاء باللمحة الدالة ، ولهذا فهو حريص على تضييق دائرة التجربة وتجريدها من أشخاصها والتعبير عنها تعبيرا مكثفا ، وينقلب الشعر - عندهم - بذلك الى آثار عقلية ، تتسربل فيها التجربة الفنية وقار العقل ، وتجف في عروقها دماء الانفعالية والواقعية ! ولهذا يطالب الشعر الجديد بتمديد التجربة وتبسيطها ، ويدعو الى العناية بالجزئيات الصغيرة التي تأتلف ظلالها فتزيد التعبير الشعري عن التجربة عمقا ووضوحا وأصالة ، وتبرز التجربة في اطار حادثة تستغرق زمنا ، وادخال الزمن الحي - كما يقول بعضهم - في القصيدة الجديدة هو أبرز انتصارات مدرسة الشعر الحر في الادب المعاصر .

يريد دعاة الشعر الجديد أن يكون المحتوى الشعري انسانيا حيا ، وأن يكون التعبير عنه صادقا حركيا حيا ، وأن يكون هنالك تجاوب حي بين المحتوى والتعبير ،

وبمثل هذا التجاوب يضمن الشعر الجديد لنفسه وحدة عضوية متحركة حية !

ان الشعر الجديد تجربة ثورية تدعو الشعر العربي المعاصر الى عملية خلق جمالية جديدة وايجاد عمود آخر للشعر العربي ، انها دعوة ثورية انقلابية على الاوضاع الشعرية التقليدية ، تريد أن تجتث عمود الشعر القديم من أصوله ، وتهدم ذلك البناء الشعري الهندسي المتناظر المتوازن القديم ، لتقيم على أنقاضه من جديد دعائم بناء حديث مريح واسع الحجرات ، يفي بحاجة النفس العربية المعاصرة ويلائم ذوقها الفني ، دون تضيق ولا عنت ولا ارهاق !

الشعر الجديد اذا ثورة خطرة في أدبنا المعاصر ، ولهذا عكف كثير من النقاد على دراسته ورصد أسبابه ، ولقد تتبعت جملة آرائهم في العالم العربي فرأيت واحدا منهم ـ وهو الدكتور أمجد الطرابلسي ـ يجعل من الشعر الجديد امتدادا للرعشة العنيفة التي انسابت في كيان الشعر العالمي كله ، ولم يكن للشعر العربي المعاصر بد من أن ينجرف في تيارها ! ورأيت نقادا آخرين يشيرون الى الشعوبية المقنعة التي تتستر بخبث ومكر وراء ستار من دعوى التجديد والتحرر والانطلاق ، وكل غايتها أن تحطم التقاليد العربية ـ أية كانت ـ مدفوعة بحقدها المسعور على جميع القيم العربية ٠٠ ورأيت بعض النقاد يردون حركة الشعر الجديد الى غرور بعض الناشئين من الشعراء ، ترهقهم اقامة الوزن ويعجزهم اخضاع القافية فيختصرون الطريق باعلان تمردهم على القيود ، ويأتون بهراء لا طائل منه ، أو بهذيان كهذيان المحمومين ، كما يصفه الشاعر المحافظ عزيز أباظة ، ولكن يستر هؤلاء العاجزون طراوة أقلامهم وضعف تجاربهم وهزالها ، يرفعون أصواتهم بالتشنيع والتقبيح ، يتهجمون على الشعراء الفحول المطبوعين ويسخرون من « عبوديتهم » للتقاليد ، وافتتانهم بالتعابير الشعرية « المحنطة ! » ٠

هذه جملة آراء النقاد في مصدر الشعر الجديد ، غير أننا نريد أن نبرز دافعا آخر جديدا لهذا الانقلاب الثوري في الادب المعاصر ، الى جانب الدوافع الاخرى المتقدمة ، وهو ـ في اعتقادنا ـ أعمقها وأهمها ، وهو ينبع ـ كما قدمنا في صدر المقالة ـ من نكبتنا القومية في فلسطين ، ذلك أن الهزيمة في فلسطين كانت صدمة عنيفة طاش في أعقابها العقل العربي ، فاختلت موازين القيم أمام عينيه ، وتفجرت في اللاشعور نقمة مجنونة تستهين بكل القيم وتتحداها ٠٠ فالثورة على التقاليد هي صورة للقلق النفسي والشك والحيرة والرغبة في التغيير والاندفاع نحو التحرر ، والاشمئزاز من الماضي والحاضر ٠٠ صورة للهزة الرهيبة التي كادت تحطم الضمير العربي في أعقاب الهزيمة !

★ ★ ★

عندما نربط بين مأساتنا في فلسطين والشعر الجديد ننتهي الى نتيجة خطيرة وهي أن هذا الشعر الحر الجديد الذي يملأ الصحف والمجلات وعددا من الدواوين الشعرية المعاصرة لا ينبغي له أن يكون كله وليد العجز والشعوبية والسخف او التقليد للآداب الغربية ، بل يجب أن نتناوله بالدراسة والتحليل لنكشف عن تلك النماذج الناجحة الرائعة فيه ! والحق أن الشعر الجديد يضم بعض الآثار الفنية الرائعة حقا ، لانها تموج بالحياة والاصالة ،ومن حق الشعر الجديد أن يزهى بالانتصارات التي كسبها له شعراء مجددون مخلصون ، في طليعتهم نزار القباني ونازك الملائكة وصلاح الدين عبد الصبور وغيرهم ٠٠ فقد أعطى هؤلاء الشعر الجديد نماذج أصيلة حية ، لا يضيرها أن يتجهم لها المحافظون المتشائمون وأن يعالنوها العداء ، وستظل هذه النماذج الناجحة بابا نرجو ـ مخلصين ـ أن يؤدي الى تطوير الشعر العربي !

يقولون ان الاستاذ عباس محمود العقاد ـ مقرر لجنة الشعر في المجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ من أشد خصوم الشعر الجديد ضراوة وحربا عليه ، وأن النماذج التي قدمت الى اللجنة من الشعر الجديد في بعض المسابقات تصدى لها العقاد فأحالها ـ دون أن يقرأها او ينظر فيها ـ الى « لجنة النثر للاختصاص ! » ونفاها من بابة الشعر دفعة واحدة ! ٠

موقف الاستاذ العقاد من الشعر الجديد ليس بدعا في تاريخ الادب ، فهو صورة متكررة للمعركة الازلية بين كل قديم وحديث ، وقديما كان ابن الاعرابي يتجهم لشعر أبي تمام وينفيه من بابة الشعر ، ويقول فيه « ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! » ٠

ثم ماذا ؟

ثم ماتت كلمة ابن الاعرابي على شفتيه ، فلم يصغ اليها أحد ، وملأ أبو تمام بشعره العبقري الحي آذان عصره ، وظل دويه يتردد في ضمير الاجيال العربية الى يومنا ، حتى رأيناه يقرع في الصيف الماضي باب المجلس الاعلى للفنون والآداب ، فتهب لجنة الشعر ـ وعلى رأسها مقررها الاستاذ العقاد نفسه ـ الى الاحتفال بعبقرية أبي تمام واذاعة فضله واحياء ذكراه !

★ ★ ★

لا نريد أن نغالي في (تقييم) الشعر الجديد والانتصار له ، ولا أن نسرف في تمجيد هذه الثورة في

ظاهرة اللون في الأدب

بقلم : الدكتور صبحي الصالح



الادب الذي نحلل هنا احدى ظواهره هو الادب الانساني الذي يصور الطبيعة الكاملة لكل انسان، بدائي أو متحضر ، من داخله وخارجه ، فيعبر بسحر الكلمة عن مشاعر نفسه ، ومظاهر حسه ، والافكار المتراكمة في ذاكرته ، والصور المطبوعة في مخيلته ، ويتوغل معه في الكون كله بسمائه وأرضه ، ومعدنه ونباته وحيوانه ، ويجعله كالنحلة النشيطة تمتص رحيق الازهار من هنا وهناك ، ثم تضع عسلا هو كل وظيفتها في الحياة !

والاحاسيس الطبيعية التي يمتاز هذا الادب بتصويرها لا ينبغي أن تكون انفعالية يدركها الانسان بجوارحه: فهذه مشتركة بين الادباء وغير الادباء، يتحسس بآثارها الناس جميعا .

بل ينبغي أن تكون هذه الاحاسيس تصويرية ، حتى تثير لدى الاديب خاصة رغبة في التعبير عما تمثله منها من صوت أو حركة ، أو لون أو رائحة ، أو ملمس أو مطعم ، أو حر أو قر . فالاديب دون سائر الناس - بعد أن يرى الالوان، ويسمع الاصوات، ويحس بلذعة القر أو لسعة الحر - يتصور هذه الاشياء ويخزنها في نفسه ، ثم تفيض على لسانه في الوقت المناسب كلمات موحية ساحر .

وفي نطاق هذه الاحاسيس التصويرية يؤثر الاديب أن يرفع قواعد الفن ، ويحيطه بحديقة واسعة وارفة

الادب المعاصر ، فالشعر الحر لا يزال بعد في دور التخمر والتجربة ، ومن الخطر على مستقبل الثورة أن يميل الغرور ببعض الرؤوس من الشعراء المجددين فيعلنوا فخورين تياهين - بلسان الشاعر صلاح الدين عبد الصبور مثلا - أن تجربتهم الجديدة هي « الثورة التي تجعل من عصرنا عصرا شعريا ذهبيا ! »فمثل هذا الغرور يسوغ للمحافظين أن يزدادوا عنفا في الهجوم على الشعر الجديد لقتله في مهده ، ويجب أن نذكر أن المقاطع اللاهبة التي راح الشاعر المحافظ عزيز أباظة في محاضرته بدمشق يسوط بها الشعر الجديد وأنصاره لقيت من جمهرة المستمعين اعجابا وتشجيعا وتصفيقا !!

يجب أن يؤمن أصحاب الشعر الجديد ودعاته بأن الطريق أمامهم مزروعة بالشوك ، مغموسة بالعرق والدم، وأن ثورتهم تجربة انقلابية خطيرة ينبغي لمن يخوض غمارها أن يكون شاعرا ثوريا مكتمل الاداة ، يتسلح بالوعي الفني والقومي والانساني ، فوق كل ما يملك من موهبة وأصالة ..

أما اذا كشف الغرور عن وجهه ، وأتيح للعاجزين والشعوبيين أن يتسللوا الى (البيت الجديد) يعيثون فيه سفاهة وسخفا وتخريبا ، فان الذوق العربي العام ينفض يديه من الثورة ، ويعاديها ، وبذلك تموت حركة الشعر الجديد ، وتضيع جهود العاملين المخلصين من أجله ، وتذوي آمالهم في تطوير الشعر العربي ودفعه في طريق الحياة وهي لما تزل في عمر الزهر والربيع .

الدكتور صالح الاشتر

الظلال ، بل بجنة الفردوس كل ثمرها حلال . ثم يتبوأ من هذه الجنة حيث يشاء ناعما بأصواتها العذاب ، وألوانها الزاهية ، وأشكالها اللطيفة، وأحجامها الرشيقة ثم يدخل الى قلبها ، وينطق بلسانها ، ويسمع بأذنيها ، ويبصر بعينيها ، ويحس أنه هو الاديب حقا ، وأنه كذلك هو الانسان حقا !

والادب – على هذا – فن تعويضي : اذ يعوض بالخيال فن التصوير ، وبالعاطفة فن الموسيقى . والعناية بظاهرة الالوان في الادب ربما دلت على أن الفن الادبي أكثر تعويضا للتصوير منه للموسيقى ، الا أن يراد بالصور ما يريده الرمزيون من تداخلها مع الالحان ، وبالاصوات ما يزعمه الرمزيون أيضا من قيامها بوظيفة الاصباغ ، فحينئذ تتداخل المشاعر ، وتتجاوب الاحاسيس وتؤدي ظاهرة اللون في الادب ما تؤديه ظاهرة النغم فيه .

بيد أن الادب الخلاق ينشىء بالكلمة ذاتها ألوانا أزهى من أصباغ الرسام ، وألحانا أعذب ايقاعا من أنغام الموسيقي الفنان . وما نحسب البدائيين مخطئين حين نسبوا الى الكلمة مقدرة سحرية ذاتية ، واعترفوا بأنهم يخافون من الكلمة لذاتها ، لا من الفكرة التي تمثلها ولا من الصورة التي توحي بها .

والاديب مهما يك ملهما في نفسه لا يلهم غيره شيئا الا اذا أوتي مرانة الساحر في توجيه الكلمات وتحريكها وتلوينها . وعليه قبل أن يسحر بكلماته أحدا أن يجد في نفسه سحر كلماته ، وأن يجد هذا السحر لذات كلماته لا لشيء خارجي عنها . فليترجم عما يراه ببصر حديد ، وعما يسمعه بأذن واعية ، وعما يشمه بأنف رهيف ، وعما يلمسه ببنان رشيق .

وهذه الكلمات المعبرة المصورة حين تؤخذ لذاتها تحمل في ثناياها – شاء الاديب أم أبى – ألوانا غير معروفة ، وصورا غير مألوفة ، وأفكارا غير مطروقة ، زادها روعة وجمالا تكرارها على ألسنة العباقرة نطقا وانشادا ، وفي لوحاتهم رسما وتصويرا : فهي اذ تنشد وتغنى ترجيع للاصوات الحلوة التي أسكتها الدهر ، كما كان يقول فرلين ، وهي اذ ترسم وتصور يصدق عليها ما لاحظه الجاحظ من « أن الشعر صياغة وضرب من التصوير » سواء أتأثر في هذا أم لم يتأثر بقول اليوناني سيمونيدس : « الرسم شعر صامت ، والشعر صورة ناطقة » .

وليس من شأننا في هذه العجالة أن نتصدى لتحديد علاقة الادب بألحان الموسيقي ، بل حسبنا أن نلمح ما بين الادب وظاهرة اللون في التصوير من روابط وثيقة : فاذا كان الرسام يجعل ألوانه وأصباغه انعكاسا للشيء المرسوم حتى تغدو اللوحة الفنية مرآة تعكس المشهد ، فان الاديب يجعل كلماته وصياغته اللفظية مرآة لصور الطبيعة بجميع ألوانها الحسية والنفسية .

وكان أفلاطون أقدم من عبر عن هذا بدقة الفيلسوف وروح الاديب ، اذ خيل اليه أن الشعر مرآة تعبر عن خوالج النفس ازاء المشاهد المصورة المرئية . وأحسب روسو متأثرا بهذه النظرية الافلاطونية عندما حاول الربط بين اللوحة الفنية المرسومة والدوافع الى رسمها فقال: « ان اللوحة الواحدة تصور بأشكال مختلفة وألوان متباينة تبعا لتغاير الحالات الداخلية في نفوس الناظرين. فتباين أوضاع الصورة من مرة لاخرى عند الشخص نفسه انما يعود للظروف التي أحاطت به » .

ولقد ظلت فكرة « المرآة » سائدة في أذهان الادباء، بارزة في آثار النقاد ، حتى آخر عصر النهضة . واليها أشار ليوناردو بقوله : « ان عقل الفنان لا بد أن يكون كالمرآة التي تعكس ما ينطبع فيها ، وتمتلىء بالصور بمقدار ما يكون أمامها من أجسام » .

ان الخيال الادبي اذن مرآة للاشياء المصورة ، يعوض بقوته الروحية الموحية عن ريشة الرسام وألوانه ولشد ما تختلف مرآة الادب عن المرآة الطبيعية ! وما أكثر ما تمتلىء مرآة الادب بصور ليس لها وجود في الطبيعة ، وانما أصلها في عالم الغيب والمثل ! فهل من عجب اذا جاءت بعض الصور الشعرية أجمل وأطرف من صور الطبيعة نفسها ؟ وهل من غرابة اذا دأب الكلاسيكيون « الاتباعيون » على الدعوة الى مثالية الشعر وظلوا حتى قيام الابداعية « الرومانطيقية » يختارون لوصف الطبيعة أو خوالج النفس ألوانا تجمل الواقع وتزين الحياة ؟..

والدعوة الى المرآة الادبية المثالية اقترنت بدعوة أخرى مماثلة لها : وهي محاكاة الطبيعة بتقليد أعذب أصواتها ، والاصطباغ بأزهى ألوانها ، والتنعم بأزكى روائحها ، والتعويض عن جميع مظاهرها تعويضا كاملا. وما من ريب عندي في أن أمين الريحاني كان يرجع أصداء هذه الدعوة حين كتب يقول في مقاله « روح اللغة » : « ان للالفاظ ما سوى الرنة والوزن ، بل الموسيقى والشكل ، ألوانا أيضا وروائح فيما دق وشف وتماوج وفاح من معانيها . أجل .. ان من الالفاظ ما يعد من الاحياء : لها مرانة البان ، وصلابة السنديان ، وسلاسة الماء الجاري ، وشذا الريحان ، وزمزمة الرعود ، وصفير البلابل ، وهمس النسيم ، وايماء الالوان ، مما يجعلها لدى الكاتب كنزا في الانشاء والابداع ! » .

وفي الادب – على كل حال – شيء قليل أو كثير من فن التصوير ، وانما تكون القلة أو الكثرة فيه تبعا للمدارس الادبية والنزعات على تعاقب الاجيال . والرسم

في الادب هو الافكار ، فهي الخطوط الاساسية ، أما اللون فهو الصور . ولذلك قال ديدرو : « الرسم يعطي الكائنات أشكالها ، أما اللون فيهبها حياتها » .

لكن تصوير الاشكال أيسر عادة من تصوير الالوان ، اذ أن للشكل أو الحجم صفات المادة كما يقول علماء الجمال ، فلا يمكن تصور حقيقة المادة دون حيز تقوم فيه . ولا نكران أن أهمية الشكل هي التي جعلته وسيلة من وسائل المعرفة ، وتوضيح الافكار ، وتقرير العلوم : فنحن بالرموز والاشكال نحل أعقد مسألة حسابية ، واذا حاولنا افهام الطفل حقيقة النمر قلنا له : (قط كبير) ، مثلما نفهمه حقيقة الذئب من قولنا (كلب كبير) . وهكذا نعقد مشابهات ومقايسات بين الاشياء المألوفة والاشياء التي يلتمس الناس معرفتها .

ومهما يكن الشكل صعبا وحيزه عميقا لا يتعذر علينا أن نقع على نموذج قريب منه ، فنقيس الاغمض على الاصرح ، ونخلق من ذلك ألوانا من الصور وضروبا من التشبيهات .

أما اللون فمجال الاختلاف فيه ضيق محدود ، وذلك مصدر صعوبته ، فالتعبير عنه دقيق جدا يستدعي مهارة فائقة ومرانة بالغة : ان كلمة واحدة « أحمر ، أزرق ، بنفسجي ، برتقالي » تعين لونا واحدا دون أن يكون هناك احتمال آخر ، اذ لا يختلط بمفهوم الازرق مثلا اللون الكحلي ، ولا بمفهوم الاحمر اللون الخمري ، فما يتداخل لونان ولا يتشابهان ، بعكس الاشكال ، فالنمر يمسي كما قلنا قطا كبيرا . لذلك استعصى على اللغويين المعجميين تعريف بعض الالوان ، واختلفت عباراتهم في توضيح مدلولاتها تبعا لاختلاف الاشياء التي تقع هذه الالوان عليها ، او تبعا لاختلاف البيئات التي تستخدمها حتى بين أبناء اللغة الواحدة : فالسفعة حمرة تضرب الى سواد ، او سواد يضرب الى حمرة ، او لا حمرة ولا سواد بل عفرة ، والادمة في الناس السواد ، وفي الابل البياض ، وفي الظباء الحمرة ، والسدفة في لهجة تميم : الظلمة ، وفي لهجة الحجاز : الضوء ، ولكنها عند بني عقيل اختلاط الضوء والظلمة بما يشبه لون الكدرة .

ان المقدرة الايحائية تقتصر تقريبا على الاشكال . أما في اللون فهي ضعيفة باهتة لا تكاد تلمح . والالوان ، فوق هذا ، لا تثبت في الذاكرة طويلا ، فهي أعراض قلما ينتبه اليها الانسان او يلتقطها احساسه . بيد ان ثمة حالات جزئية تعني فيها الذاكرة لونا ما بشكل خاص كما هو الشأن في الحجارة الكريمة النفيسة ، فلو جئت بعقيق غير أحمر لعد العقيق زائفا فما نعرف لونه الا أحمر حتى اشتقوا من لفظه لونا وسموه العقيقي .

ان الذي يوجد في الواقع هو الحجم فقط ، أما اللون فهو عرض لا حقيقة له في ذاته . لذلك يرى العلماء أن الالوان انعكاسات للاضواء ، والاديب يجعل انعكاسات الاضواء نفسية روحية ، فيعكس أضواء روحه على الاشياء ويراها كما يشاء .

ان علينا اذن أن ننقل هذه الالوان من عالم اللغة بألفاظه وتنميقاته ، الى عالم النفس بأعماقه وايحاءاته : فتلوين الاسلوب الادبي لا يكون باقحام الالوان التقليدية المعروفة أو المبتكرة على ألسنة المطبوعين عن طريق المزج بين لونين أو الوان متعددة ينشأ عنها صبغ مستطرف جديد ، لان الاصباغ قديمها ومستحدثها ، لا تقصد لذاتها في الفن الادبي ، وانما تتخذ هذه الالوان لمجرد التوسل بها الى صورة من صور العاطفة الانسانية حين رضاها أو غضبها ، وفيضها أو جفافها : فليس من اليسير الربط بين ألوان الحس وألوان النفس ، ولذلك عدوا في حكم المعجز كل شعر كثير التلوين وهو مع ذلك صادر عن شاعر كما قالوا عن بشار !

ذلك بأن البصر ليس كل شيء : فمخزون الاديب الاعمى يملأ أدبه بما يعجز البصراء عن أن يأتوا بمثله ، لان في النفس نورا داخليا ترتد اليه العبقرية في أسسها الاولى ، فما تولد العبقرية الا في الاعماق النفسية . ولامر ما كان القدامى كلما أرادوا أن يمدحوا بشارا أبوا الا أن يذكروا عماه . قال الاصمعي : ولد بشار أعمى فما نظر الى الدنيا قط . وكان يشبه الاشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله . فقيل له يوما وقد أنشد قوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ؟ واذا هو يجيب : « ان عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الاشياء ، فيتوفر حسه وتذكو قريحته » ثم ينشدهم قوله :

عميت جنينا ، والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا
لقلب اذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لاءمت بينه
بقول اذا ما أحزن الناس أسهلا

ثم يتعمد تصوير المرئيات في تشبيهاته ، ويسترسل في تلوين موصوفاته ، حتى يبلغ قمة التلوين الادبي الرمزي بقوله :

وحديث كأنه قطع الرو
ض فمنه الصفراء والحمراء

لكن بعض النقاد المحدثين يأخذون عليه هذا التداخل بين الحواس ، وهذا التشابك بين الالوان في نسبة الصفرة والحمرة الى الحديث العذب ، وتشبيه هذا الحديث بقطع الروض المتعددة الالوان !

على أن الادباء لم يعودوا اليوم بحاجة الى التلهي بايراد الالوان حيث يحسن وحيث لا يحسن ، كالغلام الذي يلعب بأصباغه لينشىء منها رسما يستغرق خياله : فقد أصبح فن التصوير الشمسي والسينمائي يساعد الادباء الوصافين ويغذي خيالهم بصور مستمدة من الواقع نفسه ٠ وعلى النقاد ، مع هذا ، أن ينبهوا الناشئين من الادباء : أن ليس من الضروري أن يكثروا من الالوان الصارخة المزركشة ، والصور الغريبة الشاذة ، ظانين أن اصالة الكاتب تتمثل في تدبيج ألوانه وشطح خياله ، فانما العبرة بألحان النفس وموسيقاها التي يثيرها تداعي الصور والاشكال والظلال في قلب الاديب ٠

ولقد عمد الابداعيون «الرومانطيقيون» الى استخدام الالوان في شعرهم ونثرهم ، وأحبوا اللون الازرق وخلعوه على أجمل الاشياء في نظرهم ، رغبة في تزويق العبارة وتنميق الاسلوب ، فتعقبهم النقاد يأخذون عليهم جمودهم على القوالب اللفظية ٠ قال أميل فاغيه هازئا متهكما بهذا التلوين اللفظي الرخيص : « لقد كان القمر يشبه بالكوكب ذي الجبين الفضي الذي يضيء البحيرات بنوره الازرق ، واعتقد أن فيكتور هوجو هو أول من لاحظ ذلك » ٠ ثم جاء جان سوبرفيل فقال : « ان اعتقاد فاغيه خطأ ، لان شاتوبريان هو أول رائد لزرقة القمر : ففي احدى الليالي لاحظ شاتوبريان أن نهار القمر الازرق المخملي بدأ ينحدر خلال الاشجار ، فأخذ هذا المعنى ادمون روستان فقال : « وعلى السطوح الزرق سال ضوء القمر » ٠

ولعل الرمزيين ـ تبعا لمذهبهم في تداخل معطيات الحواس ـ أقدر الادباء على الربط بين الكون والفكرة ، وبين اللون والصورة : ففكرة قاتمة سوداء ، وأخرى صافية بيضاء ، وهذه هائجة حمراء ، وتلك شاحبة صفراء ، وهاتيك عميقة زرقاء ٠

والربيع في نظر ملارمه شاحب أصفر ، أما الشتاء فصاف أبيض ٠ والارض عنده وردة حمراء ، أما السماء فباسمة زرقاء ، وأما الشفق فناصع البياض ٠

واللون الاحمر عند رمبو يمثل الصخب والغضب ، والشهوة والحركة والحياة ٠

والاصفر يرمز الى الانقباض والحزن ، والتشاؤم والضجر ٠

والبنفسجي يوحي بالرؤى الحلوة والاحلام العذاب والشطح الصوفي في عالم الباطن والروح ٠

والابيض يوحي بالطهر والبراءة والاخلاص ٠

والاخضر يمثل السعة والانطلاق والانعتاق ٠

أما الازرق فهو أهم الالوان جميعا عند رمبو ، لانه يوحي بالالحان الموسيقية التي تبلغ الاعماق في عالم الغيب مع الملائكة الابرار !

وتأثر بهذا بعض شعرائنا المعاصرين ، فجعل صلاح الاسير الخاطر أزرق ، بينما جعل النغم سائلا رقراقا ، فقال :

تقول ترى نلتقي
على خاطر أزرق

شظاياه غور القرا
ر من النغم المهرق

وجعل نزار قباني ضوء الكوكب أزرق ، كأنه يستعيد زرقة ضوء القمر ، فقال :

قد نلتقي في نجمة
زرقاء لا تستبعدي

تصوري ماذا يكو
ن العمر لو لم توجدي

وجعل ايليا أبو ماضي خالق الاكوان حسا وشعورا عندما نظم الالوان في الارض زهورا ٠

وقصارى القول ، ان الاديب الاصيل حين يعنى بالحقائق لا يجردها كما يفعل العالم ، بل يعتمد اعتمادا غير مباشر على ايحاءات الاشياء وظلالها ، فيقول الحقيقة كلها من غير أن يسميها باسمها لئلا يفقدها جمالها وشاعريتها : وحينئذ يستوحي معاني الجمال في الطريق العام ، والمحل التجاري ، وفي منديل سقط ، وفي حفيف الاوراق اذ تتساقط في الخريف ، فما من شيء الا ينعم بلون من ألوان النفس الشاعرة ٠ وبهذا يخلق الاديب لاتفه الاشياء في الكون جناحين بهما يطير ، ويحلق في الفضاء ، ويسبق وفد الريح !

صبحي الصالح

خواطر وتأملات

في المجلات والجمعيات الادبية

بقلم : الدكتور عزة الطباع

هذه خواطر وتأملات انبعثت في نفسي يوم اختارتني جمعية الادباء ، فيمن اختارت ، لاكون عضوا من أعضائها العاملين ، فساءلت نفسي : ماذا يمكن أن تكون رسالة هذه الجمعية ؟

والآن ، وقد أرادني الصديق صاحب « مجلة الثقافة » على أن أشارك في هذا العدد ، استيقظ في نفسي ما كان هجع من تلك الخواطر والتأملات ، وعدت أسأل نفسي ماذا يمكن أن تكون رسالة هذه المجلة ، أو على الاصح ، ماذا يمكن أن تكون رسالة كل مشروع ثقافي فني ، اذا اريد أن يكون مجديا في اخصاب الحياة الانسانية وتزيينها ؟! ولا بد قبل عرض هذه الآراء من أن نستعرض الروح الادبي للعصر الذي نعيش فيه .

الطبقة الخالدة

يصح أن نطلق على عصرنا هذا الذي نعيش فيه أسماء كثيرة منها : عصر الذرة أو العصر الالكتروني أو عصر الفضاء الخ .. أما في المجال الاجتماعي فان خير أسمائه هو عصر القضاء على الطبقات ، ذلك لان جميع الانظمة وأشكال الحكم السياسية التي تعيش اليوم تتسابق في سبيل هذا الهدف ، سواء منها من يعلم الطريق اليه ، أو من يخبط فيها خبط عشواء .

ولا نشك في أن الانسانية بالغة يوما ما هذا الهدف وملتقية قوافلها عنده . بجميع ألوانها وأعراقها ومللها ، لان نظام الطبقات ليس نظاما طبيعيا ، بل انه ليس نظاما على الاطلاق ، ما دامت جذوره تستمد بقاءها من فوضى الانتاج ، وفوضى الاستثمار ، وفوضى التوزيع ، وما لم تصنعه الطبيعة فلا بقاء له .

طبقات خالدة ممتازة

ولكن هناك نظاما للطبقات ما يزال ولن يزال أبديا راسخا ، أو بمعنى آخر ، طبيعيا خالدا لا تستطيع قوة أن تمنع بقاءه أو موقف نماءه . وكيف تستطيع أية قوة ، مهما بلغت ، أن تمحو الفوارق الابدية بين طبقة العباقرة وطبقة النوابغ ، أو بين هاتين وبين ما بعدهما من طبقات المثقفين ، فالمنورين ، فالهمل ؟ انها طبقات متمايزة لا تلغى بقرار ، ولا يقضى عليها بثورة . وما تزال جهود العلماء والباحثين تذهب هباء في معرفة موطن العبقرية والنبوغ من جسم الانسان ، وكل ما نعلمه اليوم هو أن العبقرية والنبوغ والذكاء وما شاكلها هبة أو هبات فضل الله بها بعضا على بعض من الناس في العائلة الواحدة والنسل الواحد ، بل في التوائم نفسها . وما أروع قوله تعالى في سورة الرعد :

« وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد . ونفضل بعضها على بعض في الاكل ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . »

والعلماء وجدوا ذلك

في مطلع هذا العام توصل العالم (الدكتور جوزه دلكادو) رئيس مختبر بحوث علم النفس والاعصاب في معهد الطب لجامعة (يال) في (نيوهافن) الى أن يخلق علما سماه علم (قيادة الحيوان والانسان بواسطة الراديو) . ولا مجال للاطالة هنا في تفاصيل بحوث هذا العالم ، ولكننا نذكر فقط أنه استطاع أن يزرع في رأس الانسان قطبا لاقطا يغرزه في أي فص من فصوص الدماغ . واستطاع بواسطة توجيه موجات جهاز (الترانزيستور) الى أي من هذه الاقطاب أن يوحي للحيوان والانسان بأن يقوم بالحركات والتصرفات والانفعالات التي يريدها مرسل الموجات ، حتى انه استطاع (حسب المحضر الذي أودعه الى أكاديمية العلوم في نيويورك) الى أن يمحو سير التفكير اطلاقا بتوجيهه الموجات الى القطب المزروع في الفص الجبهي للدماغ .

ولكنه ، لا هو ولا أنداده الذين يقومون بنفس البحوث أمثال : ماسه رمان ، روزفولد ، لوني ، هاملن ، في الولايات المتحدة وكندا استطاعوا أن يزيدوا في ذكاء أو نبوغ الانسان الموضوع تحت التجربة . أي انهم

استطاعوا أن يعبثوا بما عنده ، ولم يتمكنوا من أن يمنحوه من عندهم شيئا فوق ما منحته الطبيعة ٠

واذن فما هي رسالة المجلات الثقافية والجمعيات الثقافية (التي تعمل خارج اطار المؤسسات الحكومية) في التقريب بين الطبقات المتباينة للمجتمع الانساني من الناحية العقلية والفنية ؟

هنا طافت في رأسي خواطر وتأملات ألقت بذورها في نفسي بحوث العلماء في الادب ٠

ماذا يقول العلماء عن الادباء

هؤلاء العلماء لا يتركون الادباء والفنانين على عروشهم في مسابح الخيال ٠ انهم ، كعادتهم ، يتقدمون - وحدانا وجماعات - بمخابرهم وأنابيبهم واحصاءاتهم لينتشروا في كل زاوية وساحة من ملكوت الفنانين والادباء ، وليدسوا أنفهم في كل حركة ونأمة تدور هناك ، ثم لا يسألون بعد ذلك هل أفسدوا على الناس حياتهم ، أم أصلحوها ٠ (والعلاقة بين العلم والفن علاقة لا يمكن أن تكون على شكل آخر غير شكل الصراع الوحشي الذي يستنفد جهد المتصارعين ، ولعل كتاب هذه المجلة يعرضون لنا ، أو يعرض لنا بعضهم الصور الطريفة الرائعة عن ذلك الصراع الخالد) ٠

هؤلاء العلماء قال قائلهم الدكتور ماكدونالد كريتشلي ، الاخصائي بالاعصاب ، في المؤتمر الذي احتفل مؤخرا بالعيد المئوي لنظرية (أصل الانواع) لداروين في شيكاغو عام ١٩٦٠ ما يلي :

« ان لغة الانسان الحالية (أيا كان موطنها) لا تستطيع أن تعبر بشكل مفهوم الا عن ستين بالمئة فقط مما يفكر به القائل ، وان السامع لا يفهم الا ستين بالمئة فقط مما سمع ٠ »

وتبلغ الجرأة بهذا الدكتور مدى بعيدا حين يقول :

« ان هوة تتسع يوما بعد يوم بين لغة التخاطب ولغة الكتابة ٠ واذا قدر للانسانية ان تكتشف وسيلة أخرى للتعبير غير اللغات اللسانية فان لغة الكتابة ستخرج من الوجود قبل أن تخرج لغة التخاطب بزمن بعيد ٠ »

ثم يقول بعد ذلك :

« ان يوما حاسما سيأتي على الانسان يجد فيه أن حاجته الى الاتصال الذهني والعاطفي بالآخرين هي فوق متناول وسائله التعبيرية التي يقوم عليها التخاطب المعروف ٠ وحينذاك ستترك هذه الوسائل التعبيرية التي أخفقت مكانها الى وسائل أخرى ، أفصح وأنجع كال (تله باثي) أي وسيلة نقل الافكار ٠ فاذا أتى ذلك اليوم فسوف تكون الملايين من خلايا الدماغ جميعها في أخصب حالات أدائها الوظيفي ، فلا يخفى على المخاطب شيء من أفكار المتحدث ٠ »

ولا نكران أن ذلك لن يكون بادىء الامر في صالح العلائق الاجتماعية والعاطفية للحياة الانسانية ٠

العلماء على جفاء لهجتهم يوحون بكثير من الافكار الفنية الجميلة

ما رأيتني مرة أتبادل مع صديق مرهف نظرة في مجلس أو حفل الا ذكرت الدكتور ماكدونالد واعترفت معه بأن أية لغة للتخاطب أو الكتابة لا تبلغ مدى ذلك الوميض الذي انتقل بين أعيننا ! وما تلقيت يوما برقية مرموزة من عيني امرأة وانحلت رموزها في مشاعري وأعماقي قصائد وأنغاما الا ذكرت الدكتور ماكدونالد ٠ ومنذ ذلك الحين (وأنا طبيب في من جفاء العلم غير قليل) رأيت في الادب والفن رأيا احصائيا لا أعلم مداه من الصحة ، ولكني مقتنع على كل حال بأنه على جادة الصواب !

ان مهمة الادب - أو على الاصح - ان مهمة الفن عامة هي أن يعبر لنا عن الافكار والمشاعر التي خرت ولغبت وكلت دونها الرسائل التعبيرية اللغوية التي قال عنها ماكدونالد بأنها لا تبلغ ستين بالمئة مما في نفس قائلها ٠ هنالك أربعون بالمئة من الافكار والمشاعر تبقى حبيسة العجز في أذهان وقلوب الناس ، ويكون الفنان فنانا بقدر ما يستطيع أن يجسد ويمثل وينقل من هذه الافكار والمشاعر الغائمة المختلجة الى قلوب الآخرين ومشاعرهم ٠

واذا كان لجمعية الادباء والمجلات الادبية والفنية من رسالة - فانما هي في رأيي - أن تبحث عن أولئك الذين في جبلتهم ومقدورهم أن يكونوا معبرين عما في عالم الاربعين بالمئة من خوارق ٠ واذا سمحنا لانفسنا بأن نسمي هذا العالم عالم الفن والادب ، فاننا نسمح لانفسنا بعد ذلك بأن لا نسمي فنانا أو أديبا الا ذلك الذي يستطيع أن يعبر - على الاقل - عن جزء واحد من الاجزاء الاربعين المنبثة في لفائف الغموض ٠ ولست بقادر على أن أتوهم انسانا من لحم ودم يستطيع أن يعبر في عمله الفني عن الاربعين جزءا الا اذا لبس نور الآلهة ٠

واذا استطاعت المجلات الادبية أن تكتشف هؤلاء الفنانين حقا استطاعت بذلك أن تساهم في موكب الفن الانساني وجمال الحياة ، فبالتقاء عبقرية الفن ونبوغ الذوق أزينت الدنيا وأشرقت بنور ربها ووجدت الانسانية موكبها تغمره من عطاء هذه الدراري الوان لماحة شائقة وتنتشر أمامه ووراءه وعن ايمانه وشمائله غابات من الاحاسيس والمفاتن تجسدت صخرا وجمدت معدنا وقامت في الخشب والصلصال وعلى صفحات الكتب والمجلات ٠ وفي سماء هذا الموكب الانساني الرفيع خفق الفن ألحانا ترددها الآفاق السحرية ويبتل بنداها أعماق الطينة الانسانية حتى ليحار أحدنا وقد استغرق في ذلك الفيض الآلهي : أهذا من صنع السماء للارض أم هو صنع الارض للسماء !

الفردية في التاريخ العربي

بقلم : حافظ الجمالي

لست أدري ان كان هنالك انسان لا يستعيد تاريخ أمته قراءة أو تذكرا ، أو لا يقف عند الكثير منه متأملا أو مفكرا . أما أنا فأحسب أن من الطبيعي أن يعود الانسان الى هذا التاريخ ، وأن يطالعه مرة بعد مرة ، لا سيما اذا كان من هذا النوع الذي يقلقه مصير أمته ، ويجب أن يتنبأ بما سيكون من أمرها في المستقبل .

وهنالك من يقرأ التاريخ عبثا ولهوا ، لا يريد من ذلك أكثر من اضاعة الوقت . وهنالك من يقرؤه حبا بالوقوف عليه ، ومعرفته معرفة دقيقة . ولكن هنالك أيضا من يحب قراءة التاريخ لما هو أكثر من ذلك بكثير . اذ يمكن دوما أن نرتقي من التاريخ الى فلسفته ، ومن الحوادث الى قانونها ، كما يمكن أن نستشف من الوقائع التاريخية صورة اليد التي صنعتها ، والنفس التي صممتها ، والطباع التي نسجتها . واذا كانت أفعال الانسان صورة لطباعه ، فما أحرى حوادث التاريخ أن تكون صورة للامة التي أنشأتها .

ولكن هل نسلم بمثل هذا القول رأسا ، ونقبله على علاته ، كأمر لا سبيل الى الجدال فيه ؟ وهل التاريخ حقا صورة للامة التي تنسجه وتنشئه ؟ أو أن بين الامة وتاريخها تعارضا أساسيا ، وتناقضا أوليا ، بحيث لا تنسج الامة الا تاريخا غريبا عنها ، بعيدا عن طباعها ، مزيفا لحقيقتها ؟ أو لا يمكن القول أخيرا بأن حقيقة الامة حقيقة معقدة جدا ، وأن التاريخ ، على علاته ، وكيفما كان نوعه ، انما يصور هذه الحقيقة كلها ، في كل ما فيها من تعقيد ، حتى ولو بلغ درجة التناقض ؟ أو لا يمكن للباحث المنقب أن يجد في هذه الحقيقة المعقدة جوانب ثابتة نسبيا ، يصح أن يعتبرها بمثابة الخصائص الاساسية للامة التي يطالع تاريخها ؟

لا شك أن هذه مسائل يمكن أن نطرحها جديا على أنفسنا ؟ وأكاد أحسب أن فيها موضوعا هاما لبحث طويل ، مديد . أما أنا فاني أعلن هنا عن قناعتي الاولى ، بأن تاريخ الامة ، صورة لها ، وأنه لا بد وأن يجد الانسان جوانب ثابتة في هذا التاريخ ، وأن هذه الجوانب هي الخصائص الاساسية ، أو الخطوط الرئيسية لهذه الصورة . فاذا أنت قرأت تاريخ الانجليز ، وسعك أن تعرف من هم الانجليز ، وبأي الصفات يتميزون . واذا أنت قرأت تاريخ الفرنسيين ، وسعك أن تعرف من هم الفرنسيون ، وبأي الطباع يتفردون . وكذلك ان قرأت التاريخ العربي ، استطعت أن تعرف من هم العرب ، والخصائص الرئيسية لطباعهم ، والنسيج النفسي الذي منه يتألفون .

وطبيعي جدا أن لا يتسرع الانسان وألا يكتفي بفترة يسيرة من التاريخ ، وأن يحاول مد بصره في أفق تاريخي طويل ، وأن يحسن فيه النقد والتحليل . ولكن هذه الوصايات ليست مما يجب أن نوصي به الرجل المثقف الذكي ، لان من المفروض فيه أنه يعرفها حق المعرفة ، وألا يفكر الا بارشادها ، وتحت لوائها .

★ ★ ★

ولأقل اني لا أهتم الآن الا بالتاريخ العربي . ذلك اني عربي ، وأحب أن أعرف نفسي في أمتي ، وأمتي في نفسي . ثم ان هذه الامة التي هي أمتي تشق الآن طريق حياتها من جديد . فكأنها ، على تقادم عمرها ، قد عادت طفلة تريد أن تكبر ، وكأننا نريد أن نوفيها الاخطار التي قد تعترض نموها ، كما تعترض كل نمو ، حتى لا تفاجئها الازمات المركبة ، والامراض المهلكة ، لا سيما اذا كنا نذكر أنها معرضة لمثل هذه الازمات والامراض ، بحكم النسيج النفسي الذي بنيت منه .

★ ★ ★

أربعة عشر قرنا عاشتها حتى الآن أمتنا العربية ، بعد وثبتها الكبرى ، بعد انطلاقتها العظمى ، بعد نبيها وأبي بكرها وعمرها . أفليس في هذا التاريخ ما يكفي لتبين خصائص هذه الامة ، ومعرفة نسيجها النفسي ؟ أم يجب أن ننتظر مئة قرن آخر حتى نستطيع الحكم عليها ، ومعرفة طباعها ، وملاحظة خصائصها ؟ أما أنا فأظن أن هذه المدة كافية ، وأن في وسعي منذ الآن أن أعرض ما أسميه « بالخصائص الثابتة لطباع هذه الامة »

ولئن بدا للناس أن ما أصل اليه خطأ كامل أو نصف خطأ ، فلا يظنن أحد أني سأقف على الخطأ ، لا أعود عنه ، أو سأهجر الحق أو أخاف منه ·

وألاحظ أول ما ألاحظ أن الاسرتين الحاكمتين الرئيسيتين عند العرب ، هما الاسرة الاموية ، والاسرة العباسية · ولقد امتد حكمهما معا أكثر من ستة قرون · والغريب حقا أنه لم ينشأ خلال كل هذه القرون ، أي قانون لولاية العهد ، وكان كل خليفة يعين أو لا يعين ، في حياته ، ذلك الشخص الذي يلي عهده · ولقد نشأ عن ذلك ألوان من القلق السياسي ، خطيرة جدا · ومع ذلك فقد ظلت ولاية العهد من غير قانون · فكأن كل خليفة مقصور التفكير على اللحظة التي هو فيها ، لا يمتد بصره الى ما هو أوسع منها · ولقد وجد بين الامويين من يوصي بأكثر من خليفة واحد بعده ، كأن يوصي لاخيه ، ثم لابنه من بعده · ولكن ما ان يأتي الاخ حتى يريد خلع ابن أخيه ، مستعيضا عنه بابنه هو أو بغيره · وبالرغم من كل ما وقع من مشاكل خطيرة في هذا الامر ، فان أحدا من الخلفاء لم يفكر بوضع قانون عام لولاية العهد · أفيكون ذلك ايثارا للرغبة العارضة على القانون، أو قصورا فكريا يحول بين الانسان وبين التفكير فيما هو أبعد من اللحظة الحاضرة ؟ ان هذا سؤال لا مفر من الجواب عنه ·

★ ★ ★

وليس أمر ولاية العهد ، وتنظيم انتقال السلطة بالشيء اليسير ، بل هو من أخطر الامور · ولقد وجد من يرى أن انعدام هذا القانون والفوضى الناشئة عن ذلك ، كانت من أهم أسباب انحلال الدولة الاموية · بل لقد وجد من ادعى أن تصنيف المجتمعات الى متمدنة وغير متمدنة انما يقوم على أساس وجود هذا القانون أو عدمه · ذلك أن المدنيـة بحاجـة الى الاستقرار ولا استقرار الا اذا كانت السلطة الرئيسية واضحة مقررة، تنتقل من شخص الى آخر تبعا لنظام معين · أضف الى ذلك أن وجود مثل هذا القانون ممـا يكشف عن أن الانسان أو الامة قد أصبحا ينظران الى ما هو أبعد من الانف ، ويلاحظان امتداد المستقبل ، ولا يكتفيان بمجرد المتعة الحاضرة · وكلما امتد أفق المستقبل أمام الانسان، واتسع مداه ، كان نضج هذا الانسان أكبر ، وقدرته على انشاء المدنية أعظم وأوفر ·

ولكن القضية لم تقف عند هذا القانون وحده · ان مفهوم القانون جملـة ، لم يكن معروفا في التاريخ العربي · وعلى الرغم من أن تاريخنا قد امتلأ بفقهـاء نادرين ، قل أن يوجد لهم مثيل ، وعلى الرغم من أن هذا الفقه الغني الواسع كان يستطيع أن ينقلب الى قانون جزائي ، وآخر مدني ، وثالث تجاري ·· فان هذا الانقلاب لم يتم أبدا · ومن أطرف ما يذكر في هذا المجال أن عبد الله بن المقفع قد أشار في رسالته «الصحابة» الى ضرورة الاخذ بقانون موحد للقضاء ، والى المحاذير التي تنشأ عن فقدان مثل هذا القانون ، فان أبا جعفر المنصور لم يأخذ بهذا الرأي ، لانه استشار أصحابه ، فقيل له ، لا تفعل هذا ، فان رسول الله لم يفعله ·

ولم يكن القانون وحده هو الشيء المفقود ، بل ان الدستور الاساسي للحكم ، كان مفقودا أيضا · وعلى حين أن دول اليونان الصغيرة ، قبل المسيح ، كانت تعرف معنى الدستور ، وتقيم حكمها عليه ، فاننا نلاحظ أن الخلفاء العرب لم يفطنوا الى هذه الضرورة أبدا · ولقد يقال انهم كانوا يجدون في القرآن نفسه دستورا ، ولكني أعرف ، والناس يعرفون ، أن في القرآن مبادىء كبرى سامية جدا ، ورفيعة جدا ، ولكنها لا تستطيع أن تكون أكثر من روح عامة ، يستلهم منها ألوان شتى من الدساتير انها الفلسفة الدينية التي لا بد للحكم الاسلامي أن يستمد منها دستوره ، اذا شاء أن يكون اسلاميا حقا ، ولكنها لا تستطيع أن تعوض عن الدستور · ومن الطريف حقا أن نلاحظ أن بلادا عربية غير قليلة لا تزال تعيش حتى الآن من غير دستور · أفيكون هذا ايثارا للرغبة العارضة على القاعدة العامة ، أو قصورا فكريا يأبى أن يفكر الا في اللحظة الحاضرة ؟ أو يأبى أن يكون السلوك السياسي والسلوك كله خاضعا لقانون ؟

ولأنتقل الى نوع آخر من الملاحظات · ولأقل ان الصليبيين فاجأوا العرب بالحرب المبيدة، وكانت سورية يومئذ عدة دول لا دولة واحدة · كان لكل مدينة أميرها وحكومتها · وكانت كل دولة مستقلة كل الاستقلال · وبالرغم من خطر الصليبيين ، وامتداده مئتي عام ، فان أية وحدة بين هذه الدول الصغيرة ، الهزيلة ، لم تقم الا بالقوة ، قوة أمير يغزو أميرا آخر ، ويخرجه من بلده ، ليضمها الى نفسه · فكيف نفسر هذا كله ؟ أتراه ايثارا لمصلحة الامير الشخصية ، على مصلحة الرعية ، أم قصورا فكريا يأبى أن يفكر في أخطار التجزئة والانقسام ، أمام فردية طاغية تشتمل في حالة اللاوعي التي هي فيها على التعلق بالرغبة الشخصية ، وعلى القصور الفكري معا ؟

ويشهد العرب الآن تحديا عنيفا آخر يشبه الحرب الصليبية في كل شيء ، وأعني به تحدي الصهاينة اليهود وما من انسان عربي الا ويعرف أن هذا الخطر كبير ، وأن أنجع الحيل لاتقائه هو الوحدة العربية ، في الشرق العربي ، على الاقل · ومع ذلك فما نلاحظ اصرارا أقوى من الاصرار على التجزئة ، ولا نكاد نجد بريق أمل جدي في القضاء عليها · أفيعني ذلك أننا لا نرى الخطر ، أم

يفضل كل حاكم عربي مصلحته الشخصية ، على مصلحة الامة والرعية ؟ أم هو قصور فكري يحول بيننا وبين أن نفكر الا في اللحظة الحاضرة ؟

ودع الدستور والقانون والاصرار على التجزئة ، وقف قليلا عند فقدان كل ما يسمى « حكم الشورى » . انك ستجد أن اليونان والرومانيين قد عرفوه قبل المسيح بقرون عديدة . وسنجد أنهم عرفوه ودولهم صغيرة ، أو قبل أن تكون كبيرة . ثم تنظر فتجد أن الدولة العربية التي امتدت بالفتوحات الى أبعد مدى ، وتعقدت بالضرورة مشاكلها تعقدا كبيرا ، لم تجد أية حاجة في أي عهد من عهودها السابقة لانشاء مجلس للشورى ، يساعد الخليفة ويدعم بالرأي نفوذه . فبم نعلل تفرد الحاكم بالسلطة ، واستغناءه عن كل مشورة ؟ أنا لا أقول أنه لم يكن هنالك مستشارون للخليفة يعتمد عليهم أحيانا ، ويطلب منهم العون بالرأي ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا عددا محدودا من أصدقاء الحاكم ، لا ممثلين عن الشعب . أفيعني ذلك اذن ايثارا للحكم الفردي ، واحتقارا للرأي العام ، وذهولا عن تعقد المشاكل ، أم يعني أن الحكام كانوا متحلين بالعصمة لا يخطئون ولا يقع منهم الزلل ؟ ولماذا لا تجد خلال التاريخ كله أية مطالبة جدية بحكم الشورى بالرغم من أن القرآن الكريم نص عليه ؟ أولا يعني هذا أن عقلية الحاكم والمحكوم من جبلة واحدة ، وأنهما جميعا متفقان على أن من حق الحاكم أن يكون مفردا ؟

ان هذه مجرد ملاحظات . ولكن في وسعي أن أنشىء منها ومن غيرها مجموعة كاملة ، ومنظومة منسقة ، يبدو لنا فيها أن كل جوانب تاريخنا تعكسها وتصورها . ولكن لا تظن أن هذه المنظومة كلها ارادة حاكم ، أو رغبة سلطان . ذلك أنه ما من حاكم يستطيع أن يقاوم ارادة المجموع دوما ، بل هي شبه اتساق وتوافق بين ارادة الحاكم وارادة المحكوم . فبم أعلل هذا الانعدام المتطاول للقانون ، وهذا الفقدان التام للدستور ، وهذا الاصرار على التجزئة ، وهذا القصور الغريب عن انشاء حكم آخر غير الحكم الفردي التعسفي ، وهذا الذهول عن أمر المستقبل ؟

ان تعليلي لهذا كله هو أن في العرب سمة رئيسية تتحكم في تاريخهم كله . وهذه السمة هي الفردية . ولا تحسبن بعد ذلك أني أجد هذه الفردية عيبا ، ولكني أجد أنها خطر لا يعدله خطر ان فارقها حسن الوعي ، وضاق حولها أفق التفكير . وهي خير للجماعة ان رافقها الوعي ، واتسع حولها اطار العقل . انها ضد الجماعة ان فقدت الوعي ، ومع الجماعة ان هي رزقته ، أو هي عامل تهديم في الحالة الاولى ، وعامل بناء في الحالة الثانية وليس المهم أن نتعرى منها ، بل المهم أن نحسن توجيهها .

ولست مبالغا ان قلت ان على كل مؤسساتنا الرسمية والشعبية أن تساهم في هذا التوجيه .

ثم لا تحسبن بعد ذلك أني أؤمن بأن للشعوب خصائص قومية ثابتة على مدى الدهر ، ولكني أؤمن ، مع ذلك ، أن الفردية كانت ولا تزال حتى الآن ، سمة بارزة من سماتنا القومية . وقد يكون لهذا تعليل نجده في الظروف التاريخية ، أو الجغرافية ، أو غيرها . ولكن هذا كله لا يغنينا من الاهتمام بعلاجها ان كانت ما تزال قائمة ، وباحسان توجيهها ما ظلت قائمة . ولئن كان هنالك مهمة تربوية كبرى في عصرنا هذا ، فاني أحسب جازما أن هذه المهمة هي الاولى حتما .

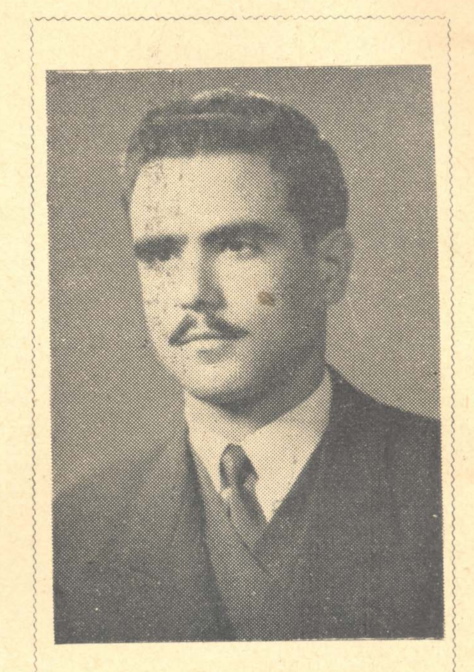
ولست أخشى الفردية ان رزقت الوعي ، وعرفت نفسها ، أو عرفها الانسان في نفسه ، ولكن أخشى ما أخشاه أن يفارقها وعي نفسها ، وأن توجه سلوكنا على غير وعي منا ، فتعيد لنا في المستقبل صورة تاريخنا الماضي . ولا شك أن هذا الماضي لم يكن أحيانا الا نفحات مقدسة من النور . ولكن ما أكثر ما كان فيه من آلام ، وما أكثر المآسي ... وكم أحب لامتي أن لا تسير من جديد الا في طريق كلها نور .

حافظ الجمالي

البحر الصامت

قصة بقلم : يوسف الحاج

« ٠٠ أن تكتب هو أن تعذب نفسك ٠٠ » باسترناك ٠



ولد المساء ٠ أسدلت الستائر وراء الزجاج ٠ كانا غائبين ، وراء المد الازرق ٠ غمر الضباب المصابيح القليلة ، في الشارع الجانبي ٠ الطفلة نائمة ٠ السفينة تراقص الموج العنيد ٠ عشرات الالوية البيضاء ، أنزلت من على صواريها ٠ ثمة مكان فارغ ٠٠ وسنابل القمح ، في الحقل الربيعي الغض ، تماوجت في توافق تام ٠ الموج يرقص السفينة ٠ صفحة غير مقروءة من كتاب مفتوح ٠ بكاء ٠ دموع ٠ ثم لا شيء ٠٠!

امتصت ظلمة الليل كل وضوح النهار المتشبث بالارض ٠ ليست هي المرة الاولى ٠ ثمة شيء غير طبيعي الآن ٠٠ ؟ الا أنه غامض هو أيضا ، غموض الصفحة البيضاء : قصيدة ناقصة ٠ لوحة مبهمة ٠ اهتزاز الريح على الابواب الموصدة ٠ عجلات تدور على الخط الحديدي الاسمر ٠٠ أرصفة سوداء كالقار ٠٠ محطة قفر ٠ مكان فارغ ٠٠ عويل أشباح شريرة تهزج في الفضاء ٠ جداول من الدمع ٠ نافذة وحيدة غير مغلقة ، ترمش وتتطلع نحو البعيد ٠ الضوء قتيل ، والرؤية محدودة جدا ٠ اصطفقت النافذة بعنف ، موجة صاخبة تتحطم على الصخرة السوداء الوحيدة ٠٠ الكون يقتات الذهول ٠ نجمة كبيرة تسطع في السماء الحالكة ٠

الموج يرقص السفينة ٠ شيء مشترك يربط جذور البيت ، بطلائع العاصفة ، بالقصيدة الناقصة ، بالسفينة المرهقة ٠ ضياع ٠ ضياع ٠٠ !! ازداد صخب الاشباح الشريرة ، وألهبت الاكف الطبول ٠ ورجع الجبل الرمادي النغمة ، حزينة ، كئيبة ٠ تثاءبت منارة المرفأ الصغير الهادىء ٠ زمجرت العاصفة داخل الجدران ، وندفت الثلج ، على المساحة المعتمة من السقف ، وغمرت الركبتين بسيل بارد ، سرعان ما تحول الى حركة لا يمكن ايقافها ٠ فتحت النافذة من جديد ٠٠ وأطل الرأس الحزين ٠ لم يعد البحر أزرق ٠ لا ، ليس له لون في مثل هذه الساعة الهاربة من الزمن ٠ وبلا تكاسل ساد العقربان يقتلان الزمن الضائع في سعير اللاجدوى ٠٠ !

●

أقفل الشيخ مقهاه الواقع قرب الميناء الصغير ، وصعد في الشارع الجانبي المقفر ، مارا تحت النافذة المضاءة ، وفكر : « ثمة شيء غير طبيعي » ٠ لم ير الرأس الحزين المترقب المطل من النافذة ٠ ولو قدر له ذلك ، اذا لقال غير ما قاله في دخيلة نفسه ، ولكان فكر في اتجاه معاكس ٠ لكنها طبيعة الاشياء الغامضة ٠ كل ما هو مرسوم ، لا تستطيع أن تضيف اليه أية مسافة أخرى الا داخل الصمت ، في عالم الاعماق ، حيث تتدمر الروح في جحيم الصراع ٠ هنالك تقترن الاسماء باللهب وتتطهر الكلمة المقدسة في مطهر الوجدان المعذب الذي يخلق عالمه ، أو دماره ٠٠! لكنه غامض رغم سطوع شمسه ٠ ان الشمس تأكل ذاتها ، مقتربة نحو السواد ٠٠ ولون البحر ٠٠ غريب ، موغل في الغرابة ٠

ارتعشت الاشجار من جذورها حتى براعمها الطفلة ٠ وجرى النسغ صاعدا ، هابطا ، في كل الاتجاهات ٠٠ والرأس الحزين مصلوب على النافذة : لوحة رمادية كلون الجبل الاصم ٠ فتحت الطفلة الصغيرة عينيها وأغلقتها تحت تأثير الضياء الساطع ، ومالت على الجهة الثانية من جسدها ، باتجاه الجدار ٠ وفي رأس

السيدة الحزينة ، أسدل الستار على الفصل الاول من مأساة الوهم المشرق ..

كانت الرسالة تقول : « الساعة الرابعة مساء يوم .. سنصل الى الميناء .. » وكلمات أخرى لا تعني شيئا مطلقا . وهكذا بحثت السيدة عن أيما خطأ في الرسالة الواضحة . لقد كان الخطأ خارج حدود الغرفة ..! ومن ثم فتحت كتابها المجلد بأناقة ، وشرعت تتلو صلواتها ، أمام الايقونة المقدسة . شمعات أربع تتوهج ، ترسل أشعتها الى زجاج الصورة ، فتتفاوت مساقط الظلال مع أنفاس السيدة ، وزفراتها المختلفة في الشدة وتطلعت الى العذراء مريم في ابتهال مطلق . كانت الغرفة تضيق ، والريح تعول في الفضاء .. والمكان الفارغ ، لما يزل فارغا . تلاشت الاشباح ساحبة ذيولها السوداء النحاسية ، نحو أعالي الجبل الاصم الاخرس . ودخلت عناصر أخرى ، الى روح السيدة . كانت مستمرة في صلاتها ، خافضة رأسها في خشوع .. صفحات تعانق صفحات ، تتوسد بعضها بعضا . الصلاة مستمرة .. والليل مستمر أيضا ، بلا نهاية ..!

★ ★ ★

منذ خمسة عشر عاما ، وقفت كغصن مزهر على مذبح الكنيسة القديمة ، لتنال البركة من الكاهن . كان ذلك في صباح يوم زفافها الى زوجها البحار . لكم سهرت الليالي العديدة لانجاز الثوب الابيض : ثوب الزفاف الذي سيحتفظ في طياته أجمل لحظة في حياتها .. بتلك الحكاية الخالدة عن عامها الثامن عشر . ها هي ماثلة أمام الكاهن ، بجانبها حبيبها ، وكل ما عداه قد تبخر من حولها . الكاهن يتلو على مسامعها الوصيات الاخيرة. الثوب الابيض . كعكة العرس الفريدة من نوعها . زجاجات الخمر المعتقة . ألحان الفرح .. همس الصبايا الجميلات من حولها .. الاثاث الجديد الفخم .. تلك الغرفة الوردية التي ذاقت فيها حلاوة التجربة الاولى . الايام التي أعقبت ذلك كله . ميلاد الابن البكر . ميلاد الابنة . أسفارتوجت بفرحة اللقاء ، حيث كان للبحر لونه الصافي الواضح . كان صديقا حنونا .. كانا غائبين . الموج يرقص السفينة . صفحات من الكتاب المقدس تعانق صفحات . وشمعات أربع على وشك الانطفاء ..!

●

كانت العجلات الفولاذية تروح وتجيء على الخط الحديدي الاسمر . المدرسة في مكانها خلف البيت . الكنيسة القديمة . المرفأ الصغير عشرات السفن ترسو وتبحر ، في الصباح ، في المساء .. وسنابل القمح تكدست على البيادر أكواما من الذهب . لقد كفت عن التماوج . واستعاد البحر لونه . الصيف القائظ يلهب السهول ، وتتحول تلال الثلوج ، الى شلالات دفاقة على مساقطها القديمة . الاشجار مثقلة بالثمار . حديقة البيت الحزين بلا ورود . السيدة ذات الرداء الاسود ، تقود طفلتها الوحيدة الى المدرسة كل صباح . الحياة فقدت روعة الشعر ، وسحر الكلمة . الايقونة المقدسة استراحت تحت ستارها الحريري الاسود . لم تعد بحاجة الى شموع جديدة . المعجزة لا تحدث الا مرة واحدة .. !

وولد المساء مئات المرات ، كما قدر له أن يولد من جديد ، يبتلع الليل .. وينداح في أعماق الليل تارة أخرى : هدوء ، لا عواصف الا ضمن الجدران الخرساء . لا ثلج في الجبل . لقد ابتلعه البيت الحزين . كانت الحياة راكدة ركود مستنقع تطفو على سطحه شتى أنواع الطفيليات عديمة الجذور . كانا غائبين طوال هذه المدة. كان البحر صامتا عنيدا ، ينظم قصيدته البيضاء غير التامة . عشرات الالوية البيضاء تشمخ على صواريها العالية . وبين أحضان السيدة ، استراح الكتاب المقدس المغلق . كانت الطفلة نائمة . الام مستغرقة في ماضيها ومستقبلها الذي يحمل ملامح ماضيها ، فهي غير قادرة على تغيير شيء ما .. انها عاجزة تماما . قاطرة تستريح في مستودع المحطة العتيقة . لم تعد الخطوط السمراء تشتاق اليها . لقد تقاعدت وأصبحت من القديم . من الماضي البعيد . لم تعد الطفلة طفلة ، لقد أضحت شابة كغصن مزهر غريب الطلع . سمحت لها أمها أن تطالع جميع كتب المكتبة . جميع الرسائل التي تفسر طلسم الحياة التي عاشتها حتى هذه السن النضرة . وأدير مفتاح غريب في الباب الجديد ، وتوغلت الشابة في الغابة الكئيبة . كانت البداية حينما كانت هي في الثامنة من عمرها . عشر سنوات . صفحة من المذكرات المنسية .. آخر صفحة من دفتر أنيق عطر . كانت تتحدث عن البحر الصامت .. عن انتظار طويل .. عن لقاء مرتقب. كانت القصيدة ناقصة : نصف دائرة بحاجة الى تتمة .. كانت في الثامنة عشرة من عمرها . وتمثلت في أعماقها طلائع العاصفة التي ستحمل اليها – الى الام – تلك الراية البيضاء ، ذلك السلام المرفرف ، لتحتل مكانها الفارغ في المرفأ الصغير ..

كانت السيدة نائمة . والشابة الوحيدة تسند مرفقيها الى خشب النافذة العتيقة . نافذة مضاءة ، وتطلع طويل الى البحر الصامت . خيوط بيضاء لجمع الاجزاء لتكون منها ثوبا جديدا لزفاف جديد . شمعتان متوهجتان أمام صورة العذراء . كان ذلك بداية قصيدة جديدة .. قصيدة كالليل ، بلا نهاية .

ولد المساء من جديد ، وتألقت نجمة كبيرة في سماء الصيف الصافية . لكن البحر بقي صامتا الى الابد .. والفرحة لم تكتمل ..؟؟

حمص – يوسف الحاج



الى تلكما العينين ٠٠ عينيك أقصد
فلي فيهما بحر وافق مورد

مدى الهدب محلولى ٠٠ فيامركض الضحى
دعيت لان أمضي فكيف التردد

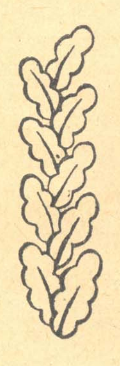
تقولون : يا بحر اتئد ، ما مصيره
ولا مرفأ يرسو عليه ويقعد

أنا السندباد ٠٠ اليوم ألقي نفائسي
على شاطىء لما يصر لي به غد

أمر على الدنيا ٠٠ فتلقفني بها
قفار وعين الموت فيهن ترصد

دعوني ٠٠ رأيت البحر قد هش ماؤه
ولوح لي أن الطريق معبد





دعوني أعب الافق ٠٠ أحضن نجومه
ومن خلفي الشطئان تهوي وتبعد

فما كان لي الا صباح وان بعد
وما كان لي الا رحيل مؤبد

أضل ٠٠ ويا هيهات ترشدني خطى
وأزجر قلعى أن تجاذبه يد

طفرت على الانواء والبحر حارسي
يعانقني برا ٠٠ وودي يعقد

له الله ٠٠ كم بالسحر أغوى وكم حبى
فلم أفتقد شيئا ٠٠ ودان لي الغد

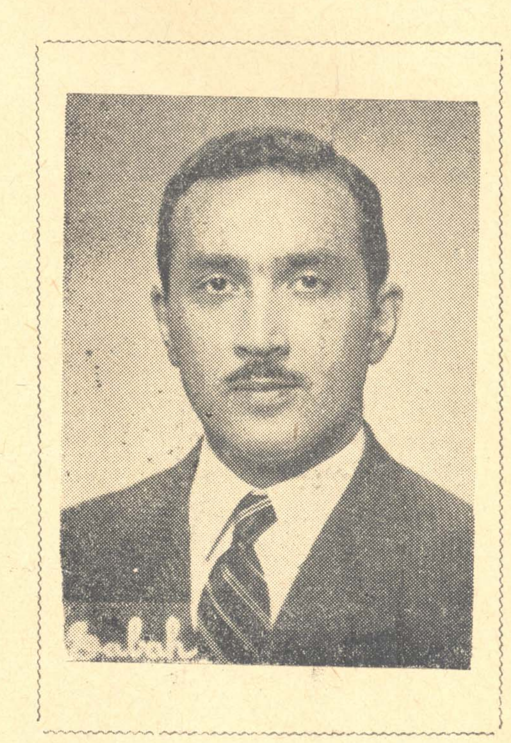
دعوني ٠٠ فما في الارض شيء محبب
وزورقي المسحور ناداه موعد

تمهيد لمسرحية

دورة الربيع

لشاعر الهند رابندرانات طاغور

تعريب الدكتور بديع حقي



يتألف المسرح من طابقين ، أعلاهما – ويقع في الخلف – مخصص لمنشدي المقدمة الموسيقية . ومسدل عليه ستار قرمزي ، واسفلهما يتبدى حين ينحسر ستار المسرح .

في زاوية الطابق الاسفل ، ومن أقصى يساره . أعد بلاط الملك . واتسق في دكك مختلفة مخصصة لمختلف الشخصيات البارزة . وقام ، على نشز ، عرش ذو مظلة . وقد انفسح صدر هذا المسرح لاداء التمثيل واطراده .

(يدخل بعض أفراد الحاشية)

– صه ! صه !

– ما الامر ؟

– لقد استبد بالملك ضيق كبير .

– يا للهول !

– من الذي يزمر ، في الناي ، هناك ؟

– لماذا ؟ ما الامر ؟

– ان الملك لفي قلق شديد .

– يا للهول !

– ماذا يفعل اولئك الاطفال الطائشون الذين يثيرون هذه الضجة ؟

– انهم من أسرة (ماندال) .

– اذن قل لاسرة (ماندال) ان تحمل أطفالها على الهدوء .

– ترى الى أين مضى الوزير ؟

– هأنذا ، ما الامر ؟

– ألم تتأد الى سمعك الاخبار ؟

– لا ، أي أخبار ؟

– ان الملك مضطرب الفكر أشد الاضطراب .

– حسنا ، لقد تناهى الي بعض الاخبار الهامة حول حرب الحدود .

– الحرب ؟ ان في ميسورنا ان نظفر بها ، ولكن ليس في وسعنا ان نظفر بالاخبار .

– ثم ان السفير الصيني ينتظر مقابلة جلالة الملك .

– دعه ينتظر . انه لا يستطيع ، على أي حال . أن يرى الملك .

– لا يستطيع أن يرى الملك ؟ – آه . وبعد فها هو ذا الملك . انظر اليه ، وهو قادم في هذه الطريق يحمل بيده مرآة .

— « ليحي الملك حياة مديدة ، ليحي الملك حياةمديدة»

الوزير — لعله أن يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أن وقت ذهابه الى البلاط قد أزف .

الملك — أزف وقت الذهاب ؟ بلى ، أزف وقت الذهاب، لكن لا الى البلاط .

الوزير — ماذا يعني صاحب الجلالة ؟

الملك — ألم تسمع ؟ ان الناقوس قد رن ، اللحظة ، مؤذنا بصرف حاشية البلاط .

الوزير — متى ؟ أي ناقوس ؟ اننا لم نسمع أي ناقوس.

الملك — كيف يكون في مكنتكم أن تسمعوا ؟ لقد قرع الناقوس في مسمعي وحدي .

الوزير — اوه يا مولاي ! لا يمكن لاحد أن تبلغ به الصفاقة ان يفعل ذلك .

الملك — أيها الوزير انه يقرع الآن .

الوزير — عفوا يا مولاي ، ان كنت كثير الغباء ، بيد انني لا أقدر على أن أفهم شيئا .

الملك — انظر الى هذا . أيها الوزير ، انظر الى هذا .

الوزير — أأنظر الى شعر صاحب الجلالة —

الملك — ألا تستطيع أن تلمح ، ثمة ، قارع ناقوس ؟

الوزير — أوه ، يا صاحب الجلالة ، اترى جلالته يمزح؟

الملك — ليس المزاح في حوزتي ، ولكن في حوزته (هو) ذاك الذي يمسك بالعالم كله من أذنه ويتخذ منه هزأة له . ليلة أمس ، فيما كانت الملكة تطوق عنقي بعقد من ياسمين ، صرخت فزعا : « أيها الملك ! ما هذا ؟ ههنا ، خلف اذنك ، شعرتان شائبتان » .

الوزير — أوه ، حنانيك يا مولاي ، لا يأخذ القلق منك هذا المأخذ الشديد من أجل شيء بسيط كهذا ، ماذا ؟ طبيب البلاط ..

الملك — أيها الوزير ، لقد كان لمؤسس اسرتنا المالكة ، طبيب أيضا ، ولكن أي شيء يستطيع أن يفعل ؟ ان الموت قد ترك بطاقة دعوته خلف أذني . لقد ودت الملكة أن تقتلع الشعرات البيض ، ههنا وههنا ، لكنني قلت لها : « ايتها الملكة ماذا يجدي هذا كله ؟ ان في ميسورك أن تستبعدي دعوة الموت ولكن أيكون في ميسورك أن تستبعدي الموت الداعي ؟ » هكذا .. أما الآن ..

الوزير — أجل يا مولاي . أما الآن فلننصرف الى العمل .

الملك — العمل ؟ أيها الوزير ، لا ينفسح لي وقت للعمل ، استدع لي (البانديت) (١) استدع « سروتي بوشان » .

الوزير — ولكن ، يا مولاي ، الجنرال ..

الملك — الجنرال ؟ — لا ، لا ، لا أبغي الجنرال . استدع (الحكيم) .

الوزير — ولكن أخبار الحدود ..

الملك — أيها الوزير . لقد تناهت الي الاخبار من آخر الحدود وأعظمها كلها ، من حدود الموت . استدع لي الحكيم .

الوزير — ولكن .. اذا شاء صاحب الجلالة أن يمنحني لحظة . فان السفير القادم من لدن امبراطور الصين العظيم ..

الملك — أيها الوزير ان أكبر الاباطرة قد بعث الي بسفارته ، استدع (سروتي بوشان) .

الوزير — حسنا يا مولاي ولكن حماك ..

الملك — ليس حموي بالذي أرغب في رؤيته الآن . استدع الحكيم .

الوزير — ولكن لعله ان يروق لك أن تصغي الي ، هذه المرة : ان الشاعر (كابي شيكار) ينتظر حاملا كتابه الجديد (حديقة الشعر) .

الملك — دع شاعرك يمتع نفسه ، لاهيا ، متسلقا عذبات الاغصان من حديقة شعره ، ولكن استدع الحكيم .

الوزير — حسنا يا مولاي سوف أطلب اليه القدوم فورا.

الملك — قل له أن يصطحب كتابه في الصلوات المسمى (اوقيانوس الزهد) .

الوزير — أجل يا مولاي .

الملك — ولكن ، أيها الوزير ، من هم اولئك الذين يثيرون هذه الضجة كلها ؟ أخرج وأطلب اليهم أن يلزموا الصمت فورا ، ينبغي أن أنعم بالهدوء .

الوزير — ان راق لصاحب الجلالة أن يعرف ، فقد انتشرت في (ناجاباتان) مجاعة كبرى ، ان رؤساء القوم في القرى يرجون ان يسمح لهم برؤية محياك .
أن أنعم بالهدوء .

الملك — ان زمن عمري لقصير ، أيها الوزير ، ينبغي

الوزير — انهم يقولون أن زمن أعمارهم لاقصر وانهم ماثلون أمام باب الموت ، انهم يتشوفون أيضا

---

(١) البانديت : في الهندية ، الحكيم الذي يزاول الحكمة والطب معا .

الى الهدوء ، الهدوء المتسق في اطفاء حرقة الجوع ·

الملك – أيها الوزير ان حرقة الجوع لتطفأ ، أخيرا ، على المحرقة الجنائزية ·

الوزير – اذن فهؤلاء الرعايا التعساء ··

الملك – تعساء ! – اصغ الى نصيحة ملك تعس يزجيها الى رعاياه التعساء : انه لمن العبث ان ينفذ صبر المرء وان يحاول التملص من شبكة الصياد القاسي ، فان الموت هذا الصياد سوف يظفر ، عاجلا أم آجلا ، بصيده ·

الوزير – حسنا وبعد ؟

الملك – دعني احظ بالحكيم وبكتابه (اوقيانوس الزهد) ·

الوزير – وفي هذا القحط ··

الملك – أيها الوزير ان القحط الحقيقي هو قحط الزمن · لا قحط القوت · اننا نتألم جميعا من جوعنا الى الزمن · وليس ثمة أحد قد ظفر بما يكفيه منه · لا الملك ولا شعبه ·

الوزير – واذن ··

الملك – اذن اعلم ان رقاع طلباتنا التي نتوسل فيها مزيدا من الزمن سيكون مصيرها الى لهيب الدينونة الاخير ، فلماذا نقسر صوتنا اذن على الدعاء ؟ آه · ها هوذا ، أخيرا · (سروتي بوشان) · اليك تحيتي ·

الوزير – أيها الحكيم هلا قلت للملك ان اله الحظ يتخلى عمن يدع سبيلا للكآبة تستبد به ·

الملك – « سروتي بوشان » ماذا يهمس وزيري في أذنك ؟

الحكيم – أنه يسألني أيها الملك أن أزجي اليك المعرفة في طرق الحظ ·

الملك – أية معرفة تستطيع أن تزجيها ؟

الحكيم – ثمة رباعية في كتابي ، كتاب الصلوات ، تترادف على هذا النحو :

ألا ان حظ ابن آدم يبدو
سريع التقلب ، لا يستقر
كزهرة لوتس تهفو شرودا
فطورا تقر وطورا تفر
وينهب في الغد ما كان اعطا
ه أمس ويلعب لعب القدر
فكل اعتقاد بحظ جنون
وكل اعتماد على الحظ شر

الملك – ايه أيها (الحكيم) ان خفقة ناسمة من تعاليمك لتطفىء شعلة الجشع الزائفة · لقد قال معلمنا : « ان الاسنان لتتساقط وان الشعر ليخطه الشيب ومع ذلك فان الانسان ليتعلق بالامل الخداع الذي يلهو به » ·

الحكيم – حسنا ، أيها الملك ، ما دمت قد عرضت الآن لموضوع الامل ، فذرني أقدم اليك رباعية أخرى من (اوقيانوس الزهد) وانها لتترادف على النحو التالي :

ونعلم ان القيود تشد
جميع الاناسي فوق الثرى
ولكن قيد التعلة يبدو
كاعجب قيد يغل الورى
فكل ابن انثى اسير بقيد
من الامل الحلو ، رهن العنا
ولا يجد الامن الا متى
تحطم وانفك قيد المنى

الملك – آه ، أيها الحكيم · ان كلماتك لثمينة · أيها الوزير انفحه على التو مائة دينار ذهبية ، ما هذه الضجة في الخارج ؟

الوزير – انهم جوعى القحط ·

الملك – قل لهم أن يلزموا الهدوء ·

الوزير – دع « سروتي بوشان » يذهب ويحاول بكتاب الصلوات ، ان يجعلهم يفيئون الى الهدوء · بينا يكون في ميسور صاحب الجلالة ان يبحث في شؤون الحرب ·

الملك – لا · لا · دع شؤون الحرب ، تأتي فيما بعد · ليس في مقدوري أن أدع « سروتي بوشان » يمضي ·

الحكيم – أيها الملك ، لقد عرضت في حديثك لي ، منذ هنيهة ، لعطية من ذهب ، ولكن الذهب ، في حد ذاته ، لا يتيح أية فائدة مستديمة فقد جاء في كتابي الصلوات المسمى (اوقيانوس الزهد) :

ومن يهب الذهب اللامعا
يهب ألما دائما موجعا
ومن ينفق الذهب الساطعا
يتح للندامة أن ترجعا
وسيان من شاء انفاق بدره
ومن رام انفاق تسعين بدره
فهذا يؤوب ويسفح عبره
وذاك يعود ويمنى بحسره

الملك – آه أيها الحكيم ، ياللمعنى الشهي . اذن انت لا ترغب في أي ذهب ، يا معلمي ؟ .

الحكيم – لا أيها الملك ، لا أرغب في الذهب ، بل في شيء أكثر بقاء منه ، في شيء قد يجعل فضلك باقيا أيضا ، لعلي أن أكون سعيدا جدا . ان وهبت لي ملك (كانشانبور) ، فقد جاء ، من أجل هذا في كتاب الزهد ..

الملك – لا ، أيها الحكيم ، لقد فهمت جيدا ، لست بمحتاج الى أن تستشهد بالكتاب ، دعما لمطلبك ، فقد فهمت أحسن الفهم – أيها الوزير .

الوزير – أجل ياصاحب الجلالة .

الملك – انظر في أمر جعل مقاطعة (كانشانبور) ملكا للحكيم – ماذا يجري الآن ، في الخارج ، علام يصرخون ؟

الوزير – ان راق لصاحب الجلالة ان يعلم ، انهم جموع الشعب .

الملك – فيم لا يأتلون يصرخون ؟

الوزير – ان صراخهم لا يني يتردد . انني أسلم بذلك، غير أن السبب يظل نفسه ، على نحو رتيب دائم . انهم جوعى .

الحكيم – لكن ، أيها الملك ، ينبغي أن أفضي اليك بشيء قبل ان انساه : ان الرغبة الوحيدة التي تجاذب زوجتي ، هي ان تدع جسدها كله ، من رأسها الى أخمص قدميها ، يهزج مسبحا بجودك . ولكن .. واأسفاه . فأن الرنين الذي يخلص منها جد خفيض لانها عاطلة عن الحلي .

الملك – انني أفهمك أيها الحكيم ، أيها الوزير . استوص ، حالا ، على حلي منجوهري البلاط، لتوهب لزوجة (سروتي بوشان) .

الحكيم – أيها الملك هلا قلت للوزير – بينا يقوم بما طلبت اليه – اننا كلينا مضطربان في صلاتنا . بسبب ترميم الدار . دعه يطلب الى بنائي البلاط الملكي أن ينشئوا ، باتقان ، دارا حسنة البناء ، يتسق لنا فيهاأن نؤدي صلواتنا بهدوء ، وأمن .

الملك – حسنا أيها الحكيم ، أيها الوزير .

الوزير – أجل يا صاحب الجلالة .

الملك – قم بهذا الامر ، على التو .

الوزير – مولاي ! ان خزينتك خاوية ، عاطلة من المال.

الملك – أف ! انها لقصة قديمة ، اسمعها كل سنة ، عليك أنت تزيد في المال . وعلي أنا ان أوسع في الانفاق . ماذا تقول في ذلك يا سروتي بوشان ؟ .

الحكيم – أيها الملك ليس في مكنتي ان الوم الوزير . انه يهتم بثرواتك في الدنيا . ونحن نهتم بثرواتك في الآخرة ، لهذا ، فحيثما يرى هو نقصانا ، نرى نحن سعة وغنى ، والآن ، ان تركتني أغوص ، مرة أخرى ، في أعماق (أوقيانوس الزهد) . فلسوف نجد قد سطر فيه ما يلي :

فحيث يجود الملك بمال
تكون الخزانة في خير حال

الملك – أيها الحكيم ان صحبتك لا تقدر بثمن .

الوزير – يا صاحب الجلالة ، ان (سروتي بوشان) . يعرف مدى قيمته ولو شارفت دانقا واحدا ، تعال الي (سروتي بوشان) هلم نحتجن كل الثروات التي تحتاج اليها لتعمر خزينة صلواتك . ان للثروة عادة قبيحة ، عادة التناقص السريع ، فان لم نبادر لجمعها ، فلسوف يتبقى النزر اليسير الذي يكفينا لنؤدي زهدنا في تمام روعته .

الحكيم – أجل أيها الوزير ، دعنا نمض ، على التو (يخاطب الملك) ما دام يصطنع مثل هذه الجلبة ، من أجل تافه كهذا ، فالاولى أن يبدأ بتهدئته ، ثم أعود اليك ، بعد ذلك .

الملك – أيها الحكيم ، أخشى أن تغادر ، ذات يوم ، حمايتي الملكية نهائيا ، لتفزع الى عزلتك في الغابة .

الحكيم – أيها الملك ما دمت أجد الهناءة والدعة في قصر الملك ، فانه صالح لي صلاح صومعة لراحتي الفكرية . علي أن أغادرك . أيها الملك الآن ، أيها الوزير هيا بنا .

(يخرج الوزير والحكيم)

الملك – آه ، ياربي العزيز ، ماذا سأفعل ؟ ها هو ذا الشاعر قادم ، أخشى أن يحملني على تحطيم نواياي الطيبة كلها ، ايه يا شعري الشائب ، غط اذني على نحو ، لا يتسنى لكلمات الشاعر المضللة ، أن تتسرب الى مسمعي .

الشاعر – أيها الملك ، ما الامر ؟ اسمع انك تريد ان تصرف شاعرك ؟

الملك – ماذا أتوقع من الشعراء حين يحمل الي الشعر رسالة الرحيل ؟
الشاعر – أي رسالة رحيل ؟
الملك – انظر الى هذا ، خلف اذني ، أفلا تلمحه ؟
الشاعر – ماذا أرى ؟ شعرا شائبا • أيها الملك • لا يأخذنك القلق من أجل هذا •
الملك – أيها الشاعر ، ان الطبيعة تحاول ان تسلبني اخضرار الشباب ، وان تصبغ كل شيء بلون البياض •
الشاعر – لا ، لا ، أيها الملك ، انك لم تفهم الفنان ، فعلى مدى هذا القاع الابيض ، سوف تضع الطبيعة الوانا جديدة •
الملك – انني لما ألمح بعد أي أثر للالوان •
الشاعر – انها ما تزال كلها كامنة ، ففي قلب اللون الابيض تكمن ألوان قوس قزح كلها •
الملك – أوه ، أيها الشاعر ، هلا هدأت ، انك تهيج الاضطراب في عطفي ، حين تتحدث على هذا النحو •
الشاعر – أيها الملك ، ان أخذ هذا الشباب يصوح فدعه يصوح • ان ملكة أخرى للشباب مقبلةاليك ، انها لتضع على رأسك ، اكليلا من الياسمين ، رجاة أن تضحي عروسا لك ، ان مهرجان الزفاف يهيأ ويعد خلف الستار •
الملك – أوه ، أيها الشاعر العزيز ، انك تشيع الاضطراب في كل شيء ، امض من هنا ، هيه ايها الحارس ، هناك ، اذهب فورا ، واستدع (سروتي بوشان) •
الشاعر – ماذا ستفعل معه ، أيها الملك ، اما قدم ؟
الملك – سأهيب بفكري أن يثوب الى الهدوء ، سأمارس زهدي •
الشاعر – آه ، أيها الملك ، حين سمعت هذه الاخبار ، قدمت على الفور ، ليكون في استطاعتي أن أكون رفيقك في ممارسة الزهد •
الملك – أنت ؟
الشاعر – أجل ، أيها الملك ، اننا نحن الشعراء نوجد ، لهذا الهدف الحق : ان نحرر البشر من أهوائهم •
الملك – لا أفهم ما تقول • انك تتكلم ألغازا ؟
الشاعر – كيف ؟ ليس في مقدورك ان تفهمني ؟ في حين انك ما تزال تنفق الوقت في تلاوة قصائدي ! ان في كلماتنا لزهدا • وان في قريضنا لزهدا• وان في موسيقانا لزهدا • لهذا كله فان الحظ يهجرنا ونحن بدورنا نهجره ، اننا نسعى ، طوال اليوم ، نلقن الشبيبة الطقوس المقدسة، طقوس ، الحظ المهجور •
الملك – وماذا تقول لنا هذه الطقوس ؟
الشاعر – انها تقول :
« أيه أيها الاخوة ، لا تتعلقوا بخيراتكم وريائكم
ولا تنتبذوا ، دائما ، ركنا من حجرتكم •
أخرجوا ، أخرجوا الى الدنيا المفتوحة أمامكم
أخرجوا ، واضربوا صعدا في أعلى سبل الحياة
أخرجوا ، أيها الزاهدون الشباب »
الملك – ولكن ، أتعني أيها الشاعر ، حقا ، أن تقول ان الدنيا المفتوحة هي طريق الزهد ؟
الشاعر – لم لا ، أيها الملك ؟ في الدنيا المفتوحة ، كل شيء هو التغير ، كل شيء هو الحياة ، كل شيء هو الحركة ، ان من يتحرك ويسيح ، دوما ، مع حركة الحياة هذه ، ساعيا ، وهو يرقص ويزمر في نايه ، في كل مراد من الارض هو الزاهد الحقيقي ، هو المريد الحقيقي للشاعر الرائد •
الملك – ولكن كيف يتاح لي أن أظفر بالامن ؟ ينبغي أن أحظى بالامن •
الشاعر – أوه ، أيها الملك ، لا تخالجنا أقل رغبة في الأمن • اننا الزاهدون •
الملك – ولكن ، ألا يجب علينا أن نبحث عن الكنز الذي يقال انه لا يتغير البتة •
الشاعر – لا • اننا لا نطمع في أي كنز لا يتغير البتة • اننا الزاهدون •
الملك – ماذا تعني ؟ أوه يا شاعري العزيز ، انك لتشوش كل شيء ان جعلت تتحدث على هذا النحو ، انك لترتنق أمن فكري • ناد (سروتي بوشان) اطلب الى أحد أن يستدعي الحكيم•
الشاعر – اليك ما أعنيه أيها الملك : اننا الزاهدون الحقيقيون لان في التغير يكمن سرنا الحقيقي• اننا نخسر رجاة أن نجد• اننا لا نؤمن بالشيء الذي لا يتغير البتة •
الملك – ماذا تعني ؟
الشاعر – ألم تلاحظ النهر المتدفق المندفع، كيف يعدو، مزبدا ، من كهفه الجبلي ، انه يهب لنفسه الانطلاق ، ففي هذه اللحظة وحدها ، يجد نفسه ، ان الشيء الذي لا يتغير البتة ، بالنسبة للنهر ، هو رمل الصحراء حيث ينهي رحلته •

الملك – آه ، ولكن اسمع أيها الشاعر · اصغ الى هذه الاصوات في الخارج · انه عالمك · ماذا نفعل به ؟

الشاعر – أيها الملك انه شعبك الساغب ·

الملك – شعبي ؟ أيها الشاعر ؟ لم تدعوه كذلك ؟ انه شعب العالم ، لا شعبي ، هل خلقت أنا شقاءه ؟ قل لي كيف يكون في وسع شعرائك الشباب الزاهدين أن يفعلوا ليواسوا آلاما كهذه ؟

الشاعر – أيها الملك ، اننا وحدنا ، الذين يمكننا أن نبلو هذه الآلام ، لاننا كالنهر الذي يتدفق ، فرحا جذلان ، وكذلك نخفف عبئنا وعبء العالم · ولكن الطريق الوعثاء القاسية كالمعدن واقفة لا تريم ، وبهذا فانها تجعل العبء أكثر وقرا ، ان الاحمال الثقيلة تئن وتصر ، في مدى الطريق ، وتحز جروحا رغيبة في الصدور · اننا نحن الشعراء ، ندعو كل انسان ، أن يحمل أفراحه وأتراحه ، في هينة، على نغم موزون، ان نداءنا هو نداء الزاهدين·

الملك – آه أيها الشاعر ، الآن، لا أعني نفسي بسروتي بوشان · ذر الحكيم يشنق نفسه · ولكن أتدري أي قلق يحك في صدري الآن · قسما بحياتي ، ان موسيقى كلماتك ، وان لم أفهم معناها ، لتملؤني اضطرابا ، والامر مع الحكيم يتخذ سبيلا أخرى مخالفة تماما ، ان كلماته واضحة وضوحا كافيا ، خاضعة خضوعا صحيحا لقواعد الاعراب ، ولكن النغم ·· لا ·· لا فائدة من المضي في التحدث اليك أكثر من هذا ··

الشاعر – أيها الملك ، ان كلماتنا لا تتكلم بل تغني ·

الملك – حسنا ، أيها الشاعر ، ماذا تود أن تفعل الآن ؟

الشاعر – أيها الملك ، أنا ذاهب ، لانطلق بين أولئك الذين يصرخون ، واقفين ، أمام بابك ، في الخارج ·

الملك – ماذا تعني ؟ ان غوث الذين ألمت بهم المجاعة ، يقع على عاتق رجال الاعمال وليس على الشعراء أن يقوموا بعمل أي شيء كهذا ·

الشاعر – أيها الملك ان رجال الاعمال ، يقومون بعملهم دون انسجام ولهذا فاننا نحن الشعراء نبادر لنجعل هذا العمل منسجما ·

الملك – تعال ، الآن ، يا شاعري العزيز وتحدث بكلام جلي ·

الشاعر – أيها الملك ، انهم يعملون لان عليهم أن يعملوا أما نحن فنعمل لاننا مدلهون بالحياة ، ولذا فانهم يأخذون علينا اننا غير عمليين ، ونأخذ عليهم أنهم فارغون من الحياة ·

الملك – ولكن من منكم على صواب ، أيها الشاعر ؟ من منكم الظافر ؟ انتم أم هم ؟

الشاعر – نحن ، أيها الملك ، نحن ، نحن الظافرون دوما ·

الملك – ولكن ما برهانك على ذلك أيها الشاعر ؟

الشاعر – أيها الملك ، ان أعظم الامور في الدنيا ليستهين بالبرهان ، ولكن ·· ان استطعت ان تزيل من الدنيا ، لامد ما ، الشعراء كلهم وقريضهم كله ، فسرعان ما تكتشف ، بغيابهم نفسه · من أين يمتح رجال الاعمال حيويتهم · ومن هم الذين يمدون ، في الواقع ، حصاد حقولهم بنسغ الحياة ، انهم ليسوا باولئك الذين استغرقوا في قراءة كتاب الحكيم « اوقيانوس الزهد » ولا باولئك الذين يتشبثون بثرواتهم دوما ، ولا باولئك الذين يلهجون بواجباتهم الجافة · لا ، ليس هؤلاء هم الذي سيظفرون في النهاية ، بل اولئك الذين يحبون لانهم يحيون · هؤلاء هم الذين سيؤتى لهم الغلاب حقا · لانهم يعيشون حقا ، انهم يرضون بالالم · بجماع قواهم ، ويزيلون الالم بجماع قواهم ، انهم هم الذين يبدعون لانهم يعرفون سر الفرحة الحقيقي ، الذي هو سر التجرد من المنفعة ·

الملك – حسنا ، أيها الشاعر ، لئن كان ما ذكرت هكذا ، فماذا تطلب الي أن أفعل الآن ؟

الشاعر – أطلب اليك ، أيها الملك ، أن تنهض وتتحرك، ان الصراخ الذي يتناهى من الخارج هو صراخ الحياة للحياة · فان لم تتحرك الحياة في اهابك ، متجاوبة مع ذلك النداء ، فثمة سبب يستدعي الخوف حقا · لا لان الواجب قد أهمل ، بل لانك بسبيل الى الموت ·

الملك – ولكن ، من المؤكد أن علينا أن نموت عاجلا أو آجلا أيها الشاعر ·

الشاعر – لا ، أيها الملك ، انه لكذب ، حين نشعر ، على نحو مؤكد ، اننا نحيا ، فاننا نعرف ، على نحو مؤكد · اننا ماضون في الحياة والعيش ، اما الذين لم يخضعوا الحياة لمحك التجربة ، في السبل الممكنة كلها ، فهم الذين لا يأتلون يصرخون :

« الحياة منقضية ، الحياة ذابلة ،

الحياة شبيهة بقطرة ندى فوق ورقة لوتس »
الملك – ولكن اليست الحياة متقلبة ؟
الشاعر – انها لكذلك ، لان حركتها متصلة دائبة ، فاللحظة التي توقف فيها أنت هذه الحركة هي اللحظة التي تشرع أنت فيها باداء مأساة الموت ٠
الملك – أيها الشاعر ، تراك تقول الحقيقة ؟ أحقا اننا سنستأنف الحياة ؟
الشاعر – بلى ، اننا سنستأنف الحياة ٠
الملك – اذن ، لئن كنا سنستأنف الحياة ، فان علينا ان نجعلها جديرة بالخلود ، اليس كذلك ؟
الشاعر – أجل ، حقا ٠
الملك – ايه ، أيها الحاجب !
الحاجب – أجل يا صاحب الجلالة ٠

(يدخل الوزير)

الملك – أيها الوزير ، فيم جعلتني أنتظر طويلا ، على الارض ؟
الوزير – كنت مشغولا جدا يا صاحب الجلالة ٠
الملك – مشغولا ؟ بأي شيء كنت مشغولا ؟
الوزير – كنت مشغولا بدعوة الجنرال للانصراف ٠
الملك – لم صرفت الجنرال ؟ لقد كان علينا ان نناقش معه قضايا الحرب ٠
الوزير – كان علي ، الى ذلك ، ان أعد التدابير اللازمة لسفر السفير الصيني رسميا ٠
الملك – ماذا تعني بسفره رسميا ؟
الوزير – ان راق لصاحب الجلالة ان يعلم انه لم يسمح له بمقابلة ، لهذا فانه ٠٠
الملك – أيها الوزير ، انك تثير عجبي ، أهكذا تدير أمور الدولة؟ماذا دهاك ، هل فقدت صوابك؟
الوزير – أضف الى ذلك ، يا مولاي ، انني كنت أحاول أن أجد وسيلة لهدم دار الشاعر ، في البدء ، لم يشأ أحد أن يقوم بذلك ، وأخيرا ، فان جميع حكماء المدرسة الملكية لتعليم النحو والمنطق ، قدموا بأدواتهم وشرعوا في العمل ٠
الملك – أيها الوزير ، تراك جننت في هذا الصباح ؟ أتهدم دار الشاعر ؟ ولم ؟ ان في وسعك اذن ان تقتل كل الطيور في الحديقة ، لتعد منها حشو الفطائر ٠
الوزير – اذا راق لصاحب الجلالة ، فليس ثمة ضرورة لازعاجه ٠ اننا لن نعمد الى هدم الدار ٠ اذ أن (سروتي بوشان) قرر استملاكها لنفسه حين سمع انها ستهدم ٠
الملك – ماذا أيها الوزير ؟ ان هذا لاسوأ بكثير ! ان آلهة الموسيقى قد تحطم معزفها على رأسي ٠ ان تأدى الى سمعها خبر كهذا ٠
الوزير – ثمة شيء آخر ٠ ينبغي القيام به يا صاحب الجلالة ، علينا ان نهب للحكيم مقاطعة (كانشانبور) ٠
الملك – لا ، أيها الوزير ، أي خطأ تقترف ! ينبغي ان تصير المقاطعة الى شاعرنا ٠
الشاعر – الي ؟ أيها الملك ؟ لا ٠ ان شعري لا يقبل مكافأة البتة ٠
الملك – حسنا ، حسنا ، دع الحكيم يستأثر بها ٠
الوزير – وأخيرا يا مولاي ، فقد انهيت الى الجنود أوامر بأن يغرقوا الشعب الجائع ٠
الملك – أيها الوزير ، انك لا تفعل سوى الخطأ ٠ ان السبيل المثلى لتفريق الشعب الجائع الساغب هي تفريقهم بالقوت لا بالقوة ٠

(يدخل الحاجب)

الحاجب – أيسمح صاحب الجلالة ؟
الملك – ما الامر أيها الحاجب ؟
الحاجب – لعله أن يروق لصاحب الجلالة ان يعلم ان « سروتي بوشان » الحكيم ماثل هنا ، وقد جاء مصطحبا كتابه (كتاب الصلوات) ٠
الملك – أوه ، أوقفه ، أيها الوزير ، أوقفه ، سوف يبث البلبلة في كل شيء ، لا تدعه يقدم الي ، هكذا ، فجأة ، ففي لحظة ضعف ، يمكن ان الفي نفسي وقد أصبحت غريقا في أعماق « اوقيانوس الزهد » أيها الشاعر ، لا تفسح لي وقتا أحمل فيه على هذا الامر ، افعل شيئا ما ٠ أي شيء ، الديك شيء معد تقوم به ٠ أي ملهاة ؟ أي قصيدة ؟ أي حفلة مقنعة ؟ أي ٠٠
الشاعر – أجل ، أيها الملك ، أعددت الشيء اللازم ، ولكن لا أستطيع أن أقول أهو مأساة ، أم قصيدة أم ملهاة أم حفلة مقنعة ٠
الملك – ترى أيكون في وسعي أن أفهم ما كتبت ؟
الشاعر – لا ، أيها الملك ، ان ما يكتب الشاعر لا يرمي الى ان يتضمن أي معنى ٠
الملك – اذن فالام يرمي ؟
الشاعر – الى ان يتضمن الجرس الموسيقي نفسه ٠
الملك – ماذا تعني ؟ الا يتضمن ما ينظمه فلسفة ما ؟
الشاعر – لا ، لا يتضمن ذلك والحمد لله ٠
الملك – اذن فماذا يقول هذا الشعر ؟
الشاعر – انه يقول : انني موجود ٠ اتعرف معنى الصرخة الاولى التي يطلقها الطفل الوليد ، ان

الطفل يسمع اما ولد ، صرخات الارض والماء والسماء التي تحيط به ، تهتف له فرحا : اننا نوجد ، ويجيب قلبه الصغير صارخا بدوره : « انني موجود » ان شعري شبيه بصرخة هذا الطفل الوليد • انه جواب عن صرخة الكون •

الملك ــ اليس هو بأكثر من هذا أيها الشاعر ؟

الشاعر ــ لا ، ليس هو بأكثر من هذا • ان في نشيدي لحياة تهتف « في الفرح وفي الحزن ، في العمل والراحة ، في الحياة والموت ، في الانتصار والانحدار ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، كل شيء يهتف : انني موجود » •

الملك ــ حسنا ، أيها الشاعر ، في ميسوري ان اؤكد لك ، ان مسرحيتك ، ان لم تحو فلسفة ما ، فلن تصبح مثالا يحتذى في أيامنا هذه •

الشاعر ــ ان هذا لصحيح ، أيها الملك ، ان الجيل الجديد ، في هذا العصر الحديث يتشوف الى الجمع والتكديس ، اكثر مما يتشوف الى الى الايجاد ، انه في عهده هذا ، اوسع فطنة من أطفال النور •

الملك ــ من الذين سندعوهم ، اذن ، ليحضروا الحفلة، هل سندعو طلبة مدرستنا الملكية الشباب ؟

الشاعر ــ لا ، أيها الملك ، انهم يجرحون الشعر بمنطقهم انهم كالايل الفتي الاروق (١) الذي ينطح بقرنيه الصغيرين مزاهر الورد •

الملك ــ اذن فمن أدعو ؟

الشاعر ــ ادع اولئك الذين وخط الشيب شعرهم •

الملك ــ ماذا تعني أيها الشاعر •

الشاعر ــ ان الشبيبة التي توسطت ما بين جيلين من الناس ، هي شبيبة التجرد • فقد خوضت في أمواه اللذة وجازتها ، واستشرفت منظر أرض الهناءة الصافية ، انها لا ترغب في التهام الثمرة بل في انتاجها •

الملك ــ انا ، على الاقل ، قد بلغت عمر التبصر ، وأضحى لزاما علي أن يكون في وسعي تذوق أغانيك هل سأدعو الجنرال ؟

الشاعر ــ أجل ، ادعه ،

الملك ــ والسفير الصيني ؟

الشاعر ــ أجل ، ادعه أيضا ،

الملك ــ سمعت ان حماي بسبيل المجيء •

(١) الاروق : ذو القرن •

الشاعر ــ حسنا ، ادعه أيضا ، ولكن تخالجني الشكوك في أولاده الشباب •

الملك ــ ولكن لا تنس ابنته •

الشاعر ــ لا يأخذنك القلق من أجلها ، انها تعمل على أن لا تنسى •

الملك ــ و (سروتي بوشان) هل سأدعوه ؟

الشاعر ــ لا ، أيها الملك ، لا ، من المؤكد لا تدعه ، انني لم أكن له أية موجدة ، فعلام أقتص منه ؟

الملك ــ حسنا ، أيها الشاعر ، لك ان تنصرف ، اذهب وقم باعداد المسرح •

الشاعر ــ لا ، أيها الملك ، سوف نقوم بهذه المسرحية ، دون أي استعداد خاص ، ان الحقيقة تبدو مزخرفة مزيفة حين يغالى في تزيينها •

الملك ــ ولكن ، أيها الشاعر ، ينبغي ان تكون ثمة ستارة خلفية •

الشاعر ــ لا ، سوف يكون الفكر ستارتنا الخلفية • ولسوف تنفض عصا الموسيقى السحرية الصورة على صفحته •

الملك ــ أيكون في المسرحية اغان ؟

الشاعر ــ أجل ، أيها الملك ، سوف يفتح باب كل فصل ، بمفتاح موسيقي •

الملك ــ وما موضوع هذه الاغاني ؟

الشاعر ــ تعري الشتاء •

الملك ــ ولكن لم نقرأ أيها الشاعر هذه القصة في علوم الاساطير •

الشاعر ــ ان هذا النشيد يؤوب بدوره ، في اسطورة العالم ، ففي كل عام ينحسر في مسرحية الفصول قناع الرجل الهرم الشتاء ، ويتراءى محيا الربيع في تمام رونقه ، وهكذا فاننا نرى ان الهرم هو شاب دوما •

الملك ــ حسنا أيها الشاعر ، اننا متفقون أحسن الاتفاق على الاغاني ، ولكن ما لديك بشأن ما تبقى ؟

الشاعر ــ ان ما تبقى كله يتصل بموضوع الحياة •

الملك ــ الحياة ؟ ما هي الحياة ؟

الشاعر ــ يترادف موضوعها على الوجه التالي : عصابة من الفتيان ، يخفون ليلحقوا برجل شيخ ، فقد نذروا على أنفسهم أن يمسكوا به ، ويدخلون غارا فزع اليه ، ويقبضون عليه ثم ••

الملك ــ ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

الشاعر ــ آه ! سوف يذكر هذا في حينه •

الملك ــ ولكن ، لم أفهم شيئا واحدا ، ترى أيكون لمأساتك وأغانيك نفس الموضوع ، أم موضوعات مختلفة ؟

الشاعر ــ نفس الموضوع أيها الملك ، ان دور الطبيعة هو الدور المقابل الذي يلعبه الشباب في حياتنا . لقد نهبت الموضوع في يسر ، من المأساة الغنائية التي نظمها شاعر الكون .

الملك ــ ومن هم اذن الاشخاص الرئيسيون ؟

الشاعر ــ أحدهم يدعى الزعيم .

الملك ــ ومن هو الشاعر ؟

الشاعر ــ انه الذي يرعى الاندفاعة في حياتنا ، وثمة شاعر آخر هو شاندرا .

الملك ــ ومن هو ؟

الشاعر ــ هو الذي يجعل الحياة محببة الينا .

الملك ــ ومن هناك أيضا ؟

الشاعر ــ هناك (دادا) الذي يرى ان الواجب لا الفرحة هو جوهر الحياة .

الملك ــ هل هناك آخرون ؟

الشاعر ــ أجل ، المنشد الاعمى .

الملك ــ الاعمى ؟

الشاعر ــ لانه لا يرى بعينيه بل بجسمه كله ، بفكره كله ، بروحه كلها .

الملك ــ ومن هناك أيضا في مسرحيتك ، بين الممثلين الرئيسيين ؟

الشاعر ــ أنت ، أيها الملك .

الملك ــ أنا ؟

الشاعر ــ أجل ، لانك ان مكثت بمنأى عن المأساة ، بدلا من المشاركة فيها ، فان الملك قد يعاود الجور على الشاعر ، ويعاود استدعاء «سروتي بوشان » ولن يكون ، بعد هذا ، أي أمل في نجاته ، وقد يندحر شاعر الكون نفسه ، ويتعين على ريح الربيع الجنوبية ان تنكفىء دون ان تظفر بتحية ولائها .

عود الى بلاغة العرب

بقلم الدكتور : عبد الله عبد الدائم

ليس بالجديد أن نقول ان ما يسر للعرب القدامى من العناية بالبلاغة ومقاييسها لم ييسر لكثير غيرهم . وما نغلو ان زعمنا أن نظرة العرب في شتى عصورهم الى اللفظ الشريف والمعنى الكريم ، لم تكن تقل في حال من الاحوال عن نظرتهم الى الخلق الرفيع والعقل السديد وما كانوا ليفصلوا في الواقع بين ما أوتيه المرء من براعة المقال وما أوتيه من رجاحة العقل وحميد الخصال . وكان بيان الرجل عندهم هو المرآة التي ينعكس عليها طبعه وترتسم فيها سجيته .

ومن العسير أن نحيط بالجوانب الواسعة العريضة لنظرة العرب هذه الى البلاغة والمنطق . وحسبنا أن نقول ان العرب ، ومن قبلهم اليونان وعلى رأسهم أرسطو كانوا يدركون عمق الصلة بين التعبير والتفكير ، بين اللغة والفكر كما يقول علماء النفس اليوم . حتى أن كلمة « منطق » عندهم تدل في آن واحد على الكلام وعلى الفكر ، كما تدل كلمة « لوغوس » اليونانية على المعنيين سواء بسواء . والهوة التي نلفيها عندنا اليوم واسعة بين الفكر واللغة ، بين الاشارة والعبارة ، كانت لدى العرب في تلك العصور المفطورة من تاريخهم ، ضيقة لا تكاد تستبين .

ولما كانت نظرتهم الى الفكر نظرة توحد بينهم وبين السلوك والخلق الى حد كبير ، ولما كانوا يرون في عقل المرء حماية لخلقه ودرعا لتصرفه ، رأينا المنطق في نهاية الامر هو المفصح عندهم عن جماع الشخصية ، ما دام أداة الكشف عن الفكر وما دام الفكر هو الخلق .

ومن هنا كانت عناية العرب بالبلاغة عناية تتجاوز في الواقع مجرد الاهتمام بالشكل والمبنى ، كما يظن غالبا . وما انحدرت اليه البلاغة في عصور التأخر العربي ، يوم أصبحت صناعة تجتنى بالشكل دون الجوهر ، ظاهرة دخيلة على اللسان العربي ، تنبىء عن مرض خطير أصاب الانسان العربي ، يوم انفصل لديه المعنى عن اللفظ ، ويوم اتسعت الهوة بينهما ، بحيث مضى كل منهما في طريقه .

والحق ان هذه الهوة التي أخذت تقوم في تاريخ العرب المتأخر بين اللفظ والمعنى ، بل بين الكلام والشخصية جملة، أمارة كبرى من أمائر التأخر الحضاري الذي أصابهم . ففي عصور الابداع والخلق الحضاري لا يقصر الفكر عن أداته كما لا تتجاوز الاداة محركها . أما في عصور التأخر فنجد الفكر أجدب من أن يولد عبارة ونجد العبارة تلهث دون الافصاح عن فكرة . ومن الصحيح أن نعيد دوما في هذا المجال قولة « بوالو » الشهيرة : « ان ما نجيد التفكير فيه نجيد التعبير عنه ، وتأتينا الالفاظ المفصحة عنه طائعة مختارة » .

وما نود ههنا أن نخوض في هذا البحث الذي يقوى على أن يملأ الصفحات الطوال . وهو بحق قمين بألا يجتزأ ويبتر في مثل هذه العجالة .

وكل ما قصدنا اليه مقدمة صغيرة نضعها بين يدي طائفة من التعريفات التي قدمها العرب للبلاغة ، والتي نقع عليها دوما في كتب الادب دون أن نقف عندها طويلا . وهي في الواقع تمتاح قوتها واتجاهها كله من نظرة واحدة توحد بين اللفظ والمعنى توحيدا عميقا ، وتأبى كل بون بينهما . وهي بالتالي جديرة بأن تقرأ وتفحص على ضوء هذه النظرة الموحدة ، التي جرى عليها العرب أيام كانت حضارتهم الزاهرة تقيهم عي المقال كما تقيهم عي الفعال ، وأيام كانت وثبتهم الروحية قادرة على صهر الكلم والفكر والعمل في بوتقة واحدة وفي كيان متآخذ متعانق .

ان الكثير من العبارات المبعثرة التي نقع عليها في كتب الادب ونمر بها مرور الكرام ، يربط بينها في الواقع هذا الخيط الرائد الذي يوكد على الصلة بين حركة الفكر وأداة التعبير عنها ، تلك الصلة التي كانت عفوية طبيعية أيام ازدهار الحضارة العربية ، ثم أخذت بالانفصام شيئا فشيئا مع انفصام الحضارة نفسها وانطفائها .

ومن هنا وجدنا الالحاف في أهمية البلاغة يراود الكتاب العرب في العصور التي بدأ الضعف ينتاب فيها الحضارة العربية ، وفي الفترات التي غدت فيها تلك الحضارة مهددة بهجمات أعدائها . هكذا نرى البيان والتبيين مثلا من أوائل طلقات الانذار التي أطلقها الادباء العرب ، ردا على بداية الوهن ، نعني بداية الانهيار في الصلة بين الفكر واللغة . وكلنا يعلم كيف كان هذا الكتاب ردا مباشرا على هجمات الشعوبية ومطاعنها . ومثله يقال في « عيون الاخبار » وفي « المعارف » وفي جميع تلك المؤلفات التي أخذت تعنى بجمع تراث العرب البلاغي ، مذكرة به منذرة بأخطار الابتعاد عنه ، معيدة الحضارة العربية الى سابق عهدها .

ومن خلال هذا الاطار ينبغي أن نفهم تلك الوقفات الطوال التي نجدها في مثل هذه المؤلفات عند البلاغة وتعريفها ومعناها ، وعند أقوال الاعراب فيها ، وعندما أثر عن النبي والصحابة وغيرهم من آراء حولها ٠ أفلا نجد مثلا في البيان والتبيين للجاحظ اشارة الى حديث « لم يكن لفظه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك » ؟ أفلا نلفي فيه قولا كقول عبد الله بن وهب الراسبي : « ان الرأي ليس بنهبى ، وخمير الرأي خير من فطيره ، ورب شيء غابه خير من طريه ، وتأخيره خير من تقدمه ؟ » وفي العمدة لابن رشيق ، أفلا تطالعنا مثل هذه الاقوال ، ويطالعنا وراءها هذا الحرص عينه على الزواج بين المعنى واللفظ ؟ أفلا نتبين ذلك خاصة في ذلك الحرص على الايجاز حيث ينبغي الايجاز وفي ركوب الاكثار ان كان الايجاز مقصرا ؟ :

« البلاغة اجاعة اللفظ واشباع المعنى » ٠ « اذا كان الاكثار أبلغ كان الايجاز تقصيرا واذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا » ٠ « البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره وآخره يرتبط بأوله » ٠ « لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه » ٠ « البلاغة اصابة المعنى والقصد الى الحجة » ٠ « البلاغة بلوغ المعنى ولما يطل سفر الكلام » ٠ « البلاغة اهداء المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ » ٠ « قيم الكلام العقل وزينته الصواب وحيلته الاعراب ورائضه اللسان وجسمه القريحة وروحه المعاني » ٠

ذلك طرف منأقوال لا حصر لها ، يحسبها القارىء للوهلة الاولى آراء متناثرة لا يجمع بينها جامع ، قيلت بدافع من تشدق ، وهي في واقع الامر توكيد لنظرة طالما حرصعليها العرب ، وأراد هؤلاء الكتاب أن يقفوا عندها عندما غدت عرضة للتصدع ٠ وقد يبدو من بدهي الامر أن تذكر هذه الصلة بين اللفظ والمعنى ، وقد يظن أن هذا القول قول مكرور ليس فيه جديد ٠ والواقع أن وقفة المتقدمين من الكتاب العرب عنده وقفة ذات معنى ودلالة ، فهي تومىء الى روح الفكر العربي ، والى ضرورة الحفاظ على ذلك الجوهر المقوم لطبع العربي ، نعني ذلك الجمع المتين بين قيمة الفكر وقيمة الاداء ، بين شرف التعبير وشرف الاداء ، ثم بين الاعراب في القول والاعراب في العمل ٠ فقد امتاز العرب أيام أصالتهم بهذه الوحدة العضوية العميقة التي أقاموها بين حدود اللفظ وحدود المعنى ، ثم بين حدود المعنى وحدود العمل والسلوك ٠ وكان مثال البلاغة الحقة عندهم الكلام المسؤول ، المسؤول عن مطابقته لمعناه في دقة ورشاقة ، والمسؤول عن مطابقته لما ينجم عنه من سلوك ٠ وما كان شيء أبغض اليهم من البيان البهلواني ، البيان الذي ينم عن نفاق ، اذ يجعل الباطل حقا والحق باطلا ٠ ووكد الاسلام هذا المنزع لديهم ، فرأينا الرسول ينهى عن التشدق والتفيهق والبيان الكاذب ٠

واذا كانت طباع الامة وأخلاقها تعرف من لسانها ، فكم يمدنا لسان العرب بأمثلة بينات على روحهم التي تأبى الفراق بين القول والفكر والعمل ٠ وكم يجدر بنا أن نجلو هذا الجانب من روحهم بعد أن نالته يد الافساد والتشويه ، وبعد أنراود بعض الباحثين أنيتهموا الفكر العربي بما أصابه في عصوره المتأخرة من انفصام بين التعبير والتفكير ، وبين التفكير والسلوك ٠

ان فهمنا لطبيعة اللسان العربي دب اليه التشويه والافساد الذي دب الى نظرتنا لسائر مظاهر حياتنا العربية ٠ وكم حسبنا الدخيل في هذا المجال أصيلا ، والمتأخر متقدما ، والانحطاط عترة ٠ وعلى هذه الشاكلة سرى الينا ما شاع في عصور الانحطاط من عناية بلاغية يربو فيها الشكل على المعنى ، وما ساد بعد ذلك من تمزق اللغة الفصحى الى لغات عامية ، فحسبنا هذا الفراق الطارىء بين التفكير والتعبير فراقا أصيلا بل علة مقيمة في الطبع العربي ، وحسبنا غلبة اللفظ على الفكر ، وغلبة القول على العمل من السمات الاصيلة التي ابتليت بها الروح العربية ٠

ونحن أحوج ما نكون اليوم الى وضع الامور في نصابها ، لندرك حقيقة عبقرية اللسانالعربي، وليستبين لنا من خلال ذلك كله أن البيان العربي كان دوما بيانا امتزج فيه القول بالفكر وبالعمل ، وكان لا يفصل بين عي المقال وعي الفعال ، ولا يفرق بين شرف اللفظ وشرف الفكر المسؤول الثاوي وراءه ٠ ان اللفظة التي لا يعرف رصيدها الفكري ، شنشنة دخيلة على العرب والكيان العربي ، وهي في واقعهم رمز للابتعاد عن روح الحضارة العربية وأصالتها ٠ والاقتراب من روح هذه الحضارة يجعلنا نعود الى تلك البلاغة العميقة التيجمع فيها العرب بين جمال المعنى وجمال اللفظ وجمال قائله ٠ ان مثل هذا الاقترابيجعلنا ندرك أن اللفظ مسؤول وأنالاسماء تحمل صاحبها مسؤولية معناها ٠ انه يذكرنا بمثل قول الشاعر :

اذا أنا بالمعروف لم أثن صادقا
ولم أشتم الجبس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه
وشق لي الله المسامع والفما

ان محاولات الكتابالعرب الذين أشرنا الى بعضهم، من مثل الجاحظ وابن رشيق وابن قتيبة والثعالبي وغيرهم كانت تهدف في أعماقها الى العود الى الطبيعة الحقة للبلاغةالعربية والى التوكيد علىمقوماتها الصحيحة والتعريفات التي كانوا يطيلون الحديث عنها كانت تعني في أعماقها رد الاشياء الى الاصول والرجوع الى الجادة ٠

ومثل هذه المحاولات ينبغي أن تمدنا اليوم ، لنعود أيضا الى جادة البلاغة العربية، فنربط بأصولها ، وتنعقد الصلة بيننا وبين روحها ٠ وعند ذلك تصبح الكلمة قوة ويصبح الفكر سلوكا ، ونعاود ذلك الجانب الانساني الهام من تراثنا ، جانب الارتباط بين حياة الالفاظ وحياة المعاني والافعال ٠

حكمة وجود الدولة

بقلم : زكي الأرسوزي



عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ! هكذا أفصحت الآية عما كان يدور في خلد العرب في عهد ما قبل الرسالة ، ويا لها من آية تفصح أيما افصاح عما تختلج به نفوسنا ، نحن العرب المعاصرين . فمن منا لم يحلم باقامة دولة تعيدنا الى موكب الحضارة فتجعل شأننا ذا وزن في مصير العالم ؟ من منا لم يحلم باقامة دولة تجمع العرب تحت راية العروبة فتطهر ديارنا من دنس الاغيار ؟ ومن منا لم يطمح في شرف الاسهام في اقامة صرح هذه الدولة ؟

ولكن هل ما نحلم به ونطمح في تحقيقه نزوة عابرة ، أم هو شوق يتمخض عنه صميم كياننا ؟ ان الاجابة على السؤال تستلزم سبر أغوار الانسان وتحليل الظروف التي تكتنفنا كعرب . وها نحن نحاول ذلك مظهرين فيما يلي أصول الدولة ومهامها :

فلما اشتق الذهن العربي كلمة انسان من الانس (أنس) دل على حدسه في أن الاجتماع أصل في الطبع البشري ، دلالة يلتقي بها مع أريسطو الملقب بالمعلم الاول ألم يعرف فيلسوف اغريقيا الانسان بأنه حيوان اجتماعي بالطبع ؟

ولما أنشأ الذهن العربي صيغتين للجمع ، صيغة لجمع العاقل (السالم) ، وأخرى لجمع الاشياء (المكسر) أدرك أن علاقة الفرد بالجماعة تختلف عن علاقة الشيء بالكومة . فالاولى تقوم بذاتها بينما الثانية تتبع موقف الذهن منها . ولما اتخذت صيغة جمع العاقل صورة مفخمة للمفرد بتحويل التنوين من المفرد المذكر الى مفخمه الواو والنون في جمع المذكر : مؤمن مؤمنون ، وبتحويل الفتحة والتاء في المفرد المؤنث الى الالف والتاء الطويلة في الجمع المؤنث : مؤمنة مؤمنات دل هذا الاتخاذ على أن المجتمع محل نمو أعضائه وهو منهم كالشجرة من البراعم أي أنهم يستمدون منه نسغ الحياة .

وهل كانت المجتمعات القديمة لتسهو عن مدى تعلق الفرد بالجماعة ؟ ألم يكن عندهم عقوبة الخلع من حظيرة الجماعة أشد عقوبة ينزلونها بالشذاذ من بينهم ؟ ومتى انزوى الانسان عن قرنائه أدرك مرارة العزلة وبدا له المجتمع كالهواء من الاحياء أو كالماء من السمك .

كذلك هو المجتمع وسط على مثال الجسد ، يمد الحياة بأسباب النمو والازدهار فاذا كان الجسد يستدرج بنموه الميول الى الظهور في ساحة الشعور ، فان المجتمع يستجلي بتطوره الحدس مقومات انسانية الانسان .

ان تأثير المجتمع في انماء أعضائه وفي صوغه اياهم على صورته لابعد مدى مما يخيل لاول وهلة عندما تتمثل أوضاع البيئة الانسانية في الذهن تنبعث معاني هذه الاوضاع من نفوس الذين تمثلت لهم فمثل الاوضاع العامة في بعث معانيها كمثل كلام من مقال ، بل كمثل أصداف تدعو ، بقوة سحرية ، الحياة التي أنشأتها الى العودة الى مسرح الطبيعة .

ولكن اذا كانت أوضاع المجتمع المتمثلة في الاذهان تدعو معانيها الى البدور في ساحة الشعور حتى تصبح النفوس مثقلة ببذور الثقافة كما تصبح الحوامل مثقلة بثمرات فؤادهن ، فان المعاني المتجلية من حيث الوضوح

ومن حيث شدة النزعة للتحقق تختلف من نفس لاخرى،

كذلك هم أعضاء المجتمع ، يرتبط بعضهم ببعض بروح مشتركة هي معنى الاوضاع العامة ، روح يتلمسها العوام (من عمي ، عمه) ويفصح عنها النوابغ (من نبغ) بحيث يصبح هؤلاء من أولئك بمثابة الحواس من الخلايا الاخرى في الجسد ومن هنا يأتي مبدأ المشابهة بين أعضاء المجتمع وبين أعضاء الجسد . ومتى ما بزغت المعاني من تحت الشعور حملت أصحابها على الافصاح عنها بوضع أمثل ومن هنا ظهور الاصلاح بمظهر الرسالة المشرقة من عل ، تشرئب النفوس اليها أمنية .

ذلك هو المجتمع ، أوضاعه مستفاضة رموزا في المكان ، وجذوره هذه الاوضاع المتبلورة في الرموز معان تنبثق من أعماق الوجدان . مثل الاوضاع العامة كمثل النباتات المائية التي تطفو أوراقها على السطح وتمتد جذورها في الاغوار .

واذا اشتق الذهن العربي من نفس المصدر كلمة « عقيدة » التي هي مبدأ الثقافة وكلمة « انعقاد الجنين في الرحم » التي هي مبدأ الحياة فقد فطن للشبه في التكوين بين المجتمع والجسد فكما أن الحياة نظام من الوظائف في الجسد يقوم بأداء كل منها عضو معين ، فكذلك هي في المجتمع يقوم بأداء كل من وظائفها أحد المواطنين . وقد عبر الذهن العربي عن النظام في المجتمع بكلمة (عدالة) كما عبر عن النظام في الجسد بكلمة (اعتدال) وتعبيرا عن الحدس العربي هذا اتخذ الميزان شعارا للعدالة .

ان لكل مجتمع نظام قيمه كما لكل نوع حيواني نظام وظائف حياته . واذا كان نظام وظائف الحياة يخضع تكوينه لتداخل عاملين ، عامل الملائمة مع البيئة الطبيعية وعامل وجهة نظر النوع في الدنيا ، فان نظام القيم هو أيضا يخضع تكوينه لفلسفة الجماعة من جهة ، ولقاعدة استقرار الجماعة في الطبيعة من جهة ثانية . ان الشريعة بناء يماثل في محاولته التوفيق بين الوسائل والغاية لفن العمارة في توفيقه بين مقتضيات طبيعة مواد البناء وبين الهام المعمار .

كل شعور يفصح عن ذاته ببادرة هي منه بمثابة الجسد من النفس والبادرة الطبيعية يشترك فيها أبناء النوع الواحد حتى اذا ما امتثلت في ذهن أحدهم بعثت في نفسه الشعور الذي تعبر عنه ومن هنا نشأ التفاهم الرحماني بين الاحياء ومن هنا بدأ التعاون بين الاخوان على تحقيق الاهداف المشتركة وعلى رفع الحيف بعضهم عن بعض . وهل العمل الا امتدادا لنزوع المعنى الى التحقق ؟

ومن غريب الامر أن يبدو الشعور الموحى منبعثا من النفس من أفق غير أفق مشاعر الجسد ، أي أن شعورنا بآلام اخواننا أعمق منبتا في نفوسنا مما هو في صاحب الالم ، عمق يفضي على من بدر في نفسه هالة من الروعة ومن هنا كان تفوق الواجبات على الحاجات . وذلك ما يوحي بأن الايثار أصل في الطبع البشري ، لا الانانية . وهل من غرابة في ذلك ؟ ألا يمثل الايثار الحياة نفسها في فيضها في حين أن الانانية نزوع ظواهر الحياة الى التفرد فالجمود .

ان كلمتي (شعور) و (واجب) تدلان بأرومتهما اللغوية « شع » و « وج » على أن الشعور ينجم في الوجدان من التجاوب الرحماني بين الاخوة ، وان الواجب انما هو استجابة قويمة تجيب بها النفس على وضع منحرف ، تجيب بها اجابة تتفاوت بالشدة والرفعة . فاذا اعترى كيان الحياة عطب بدا الواجب ملتبسا بشعور الرحمة (من الرحم) واذا أصاب نظام المجتمع خلل بدا الواجب ملتبسا بشعور العدالة (من عدلي الفرس) ، واذا انتاب وضع المجتمع البلى بدا الواجب ملتبسا بشعور الدعوة الى الاصلاح .

كذلك هو الواجب ، اجابة تتجلى في النفس كمعرفة وعمل ، اجابة ترمي الى ترميم العطب في كيان الحياة والى رفع الحيف عن الاخوان ، والى استبدال الواقع الجائر البالي بآخر يتفق مع روح المرحلة التاريخية الراهنة ..

ان النفس تتخطى بالواجب دائرة الميول وأغراضها المغلقة الى كيان رحماني متفتح نحو التسامي وقد ترتقي النفس به حتى تبلغ العقيدة مصدر وجود النظام، وعندئذ يتجلى لها معنى المرحلة التاريخية حقيقة انسانية .

هذا ، ولما كان الانسان ذا طبع مزدوج المظهر يتردد أثناء العمل بين المبدأ والغرض ، تارة يبقى على حدود الواجب ، وأخرى ينساق نحو الغاية ولما كان هذا التردد يتحول الى حرية يتعين بها موقفه من المتناقضات : الصدق والكذب ، الغدر والوفاء ، فقد أصبحت علاقته باخوانه تختلف عن علاقة الخلية بشقائقها الخلايا الاخرى في الجسد ، عن العلاقة التي تضارع في خضوعها قوانين حتمية كالذرات الكيمياوية مثلا وحتى عن علاقة الحيوان بالقطيع في خضوعه للغريزة وذلك ما يجعل موقف المرء ، موقف الحر بين المصلحة والواجب ، يفتقر الى دعامة تدعم ارادته في اختيارها سبيل الحق وفي تثبتها عليه في القول وفي العمل وليست الدولة الا تلك الدعامة التي تدعم الحق بنزعته الى التحقق .

ان للحاجات فتنتها وان للواجبات روعتها ، ولكن الارادة بين الحاجات والواجبات كأنها بين سطح منحدر

وبين شماريخ متعالية، مما يلزم المرء الاستعانة بالجماعة كمسند يسنده في صبوته نحو الوضع الامثل ٠

أرنا موضوعين لأمر غريب
ونسحر بالطعام وبالشراب
– امرىء القيس –

ومـا زلت سـباقا الى كل غاية
بها يبتغى في الناس مجد واجلال

ان للمجتمع وسائله في كبح جماح الافراد ، فهو يردع من تسول له نفسه تخطي حدود الاعتدال وذلك بالاستهجان وبالاستهزاء ، ولولا ذلك لاسترسل الناس في شهواتهم حتى أصبحوا عبيد نزواتهم وليس القبح الا المظهر المتبلور لطغيان الشهوات ، مظهر يرمز الى اتقصير المرء عن غايتـه وهبوطـه الى ما دون البهيمية ٠ واذا تطاول أحد الشذاذ على حقوق الآخرين متخطيا بهذا الاعتداء حدود العدالة ، دعاه المجتمع بالقصاص الى التأمل في مبدأ الحق مصدر وجود النظام ٠ تلك دعوة ينجلي عن التأمل فيها مبدأ الحق في النفس كما تنجلي السماء بعد العاصفة ٠ وعندئـذ يذكو الشعور بالواجب صـوت الانسانية الداوي في نفوس الافراد ٠ هكذا يهدف المجتمع من الاعتدال والعدالة جعل أعضائه في أحسن تقويم ، جعلهم وسطا بين السماء والارض، بين الآيات والاشياء ٠

ولما كان الانسان يتردد أثناء العمل بين الميل الى حاجاته وبين دعوة الحق من عل ، وكان لكل من الطورين دعامته ، للميل لذاته التي تنبعث من ثنايـا البوادر الجسمانية المرافقة لتحقق الغرض ، وللحق بهاء رفعته ، فقد أصبح المجتمع يدعم دعوة الحق بالتربية وبالاصطفاء في الوراثة ٠٠

أشاور نفس الجود ، حتى تطيعني
وأتـرك نفس البخل لا أستشيرهـا
واني لاسـتحيي صحـابي أن يروا
مكان يـدي ، في جـانب الزاد أقرع
أقصر كفي أن تنـــال أكفهـم
اذا نحن أهوينـا ، وحاجاتنا معـا
– حاتم الطائي –

وصفوة القول ان الانسان ذو بنيان رحماني مثالي، من جهة ، وحر في الاقبال على المثل الاعلى أو الاعراض عنه من جهة ثانية ، فهو بحكم بنيانه الرحماني ينزع الى الايثار وبتعبير آخر ان حقوق الاخوان تبدو واجبات منبعثة من نفسه ، وهـو بحكم بنيانه المثالي ينزع الى ابلاغ كل شيء كماله ولكن النزعة تظهر في الوجدان صورة ، والصورة تزهو اذا تبنتها الارادة وتضمر اذا أعرضت عنهـا ولو رافق الاعراض التأنيب والتقريـع (عذاب الوجدان) ٠

ان الدولة هي نزعة الحق الى احقاق ذاته عنـد الناس وليست قدسية السلطة الا هالة الحق المستفاضة على رجل الدولة استفاضة قدسية الواجب على صاحب المروءة ٠ وأمـا الامرة والطاعـة فهما الميل المشترك الى المسابقة في تحقيق الامنية ٠ واذا تفاوت الناس في الامرة والطاعة فيما بينهم فان التفاوت يرجع الى الاختلاف بينهم في وضوح الرأي في الشؤون الانسانية وفي تأثير هـذا الوضوح على العمل بمقتضاه ٠

هكذا يستمد سلطان الدولة قدسيته من مبدأ يتعدى بنشأته حدود دائرة القوى المغلقة في الطبيعـة وهكذا تفتقر الارادة في موقفها موقف الحر بين الواجبات والمصالح الى دعامة الدولة ٠

هناك أسباب أخرى تدعو الى تبلور نزعتي الانسان الى الامرة والطاعة في جهاز معين ، منها حماية حقوق الجماعة ، تراثها ومجالها الحيوي ٠ وكلمة (سيد) تشير بأرومتها سد (حماه) الى تلك الحقيقة ، وتؤيد وجهة النظر هذه كلمة «أسود وأسد» المشتقتان من ذات المصدر ، فالسبع أسد اذا حمى غابتــه من المعتدين ، والاسود هو من تخلف عن الاشتراك مع الآخرين بحماية حقيقة الجماعة ٠ وعلى هذا فان السيادة امتداد للابوة تقوم على الكفاءة لقيادة الجماعة ٠

تلك هي السلطة مزيج من قدسـية الحق ومن الكفاءة للقيادة وانما الاختلاف بين الامرة والطاعة يقوم على اختلاف في النوع فيما هو مشترك بين الجماعة ٠

ولما يبلغ المجتمع مستوى الحرية ، حرية الاشتراك مع العناية في تعيين مصيره ، يعيـد النظر في مقومات حياته العامة ، فيبني ، على مسؤوليته ، الوضع السياسي الاقرب للافصاح عن وجهة نظره في الدنيا وعندئذ يضاف الى سلطان الحق سلطان العهـد ٠ ألا تضارع الحرية الوحي في القدسية ، قدسية نشأتها من فوق سلسلة الحوادث الطبيعية ؟ وهل من صفة غير الحرية تسمو بالانسان حتى يصبح على مثال باريه ذاتاً مبدعا ؟

هكذا تقوم الدولة في أعلى مراتبها على اقرار الارادة٠

هذا ، وان الظروف التي تحفز بنا الى اقامة دولة عربية تجمع شملنا قد لخصت رأيي فيهـا في مستهل حديثي عن مأسـاة لواء الاسكندرونة لطلاب الجامعـة السورية وهاك بعضا من هذا الحديث :

كان العرب فيما مضى سادة العالم ، كانت كلمة عربي ، في عرف الاقوام ، مرادفة لكلمة شرف حتى اذا ذكر الناس محاسن امرىء قالوا عنه : جميل كالعربي نبيل كالعربي ٠ كان سلطان أجدادنا قد امتد من سد الصين الى جبال البيرەنه، وكانت طليعة جيشنا قد تقدمت حتى باريس في الغرب ، كما كان خلفاؤنا قد أخضعوا

لولائنا ملوك الصين في الشرق ، وكنا اذ ننتشر على وجه الارض انما كنا نبتغي اعلاء كلمة الحق ٠

ونحن لسنا أمة وسطا بمعنى الاكمل ٠ الاقرب الى مقومات الانسان وحسب ، ان بلادنا هي أيضا وسط بين الغرب والشرق على ملتقى القارات ، تشرف من جهة على المحيط الاطلسي وتشرف من جهة أخرى على المحيط الهندي ولكن اذا كانت أرجاء العالم من تركستان الى فرنسا لم تزل تدوي بها سنابك خيلنا ، واذا كان موقع موطننا في العالم يجعل منا الحكم في مصير الاقوام فان شأننا هذا هو السبب في تألب الدول الكبرى منها والصغرى على الحيلولة دون نهضتنا وليس لسبب آخر توالت ٠ علينا المآسي : مأساة كيليكيا ومأساة اسكندرونة الخ ٠٠ وماذا نرى لو أجلنا الطرف الى الوراء ٠٠٠ انكفأنا عن فرنسا وايطاليا والهند وتركستان وايران ، ومن ثم انكفأنا عن الاندلس وأخيرا أمست ديارنا نهبا بين الاغيار ٠

ونحن نستخلص من وجهة النظر المتقدمة في أصول الدولة مهمامها ولما كانت الدولة شخصية المجتمع الواعية فقد أصبحت مهامها مهام المجتمع نفسها ٠ وبناء على ذلك فان مهمة الدولة الاولى أن تأخذ بأيدي المواطنين فترفع بهم الى مستوى الحرية بحيث يتسنى لهم أن يشتركوا عن وعي في المصير العام ، كما يسمو المجتمع بأعضائه على موج المشاعر التي تفيض من التجاوب الرحماني بينهم الى ينبوع المكارم ، سموا يصبح فيه موقف كل من مواقفهم المبدعة لحمة في نسيج الحضارة واذا ما تدفقت المشاعر في الوجدان انجرفت بفيضها الحدود المرسومة من الانانية أو بتأثير العادة ، في جو كهذا ينعم الجميع بالحب والفضيلة ، بموقف يشرف منه المرء على المصير كما أشارت الى ذلك كلمة حب المتضمنة معنى الاعتلاء ، بموقف الحياة كما أشارت الى ذلك كلمة فضيلة المشتقة من الفيض ٠

ومهمة الدولة الثانية هي أن تنظم المجتمع تنظيما يتمكن به كل من المواطنين من أن يجعل الانسجام تاما بين حاجاته وبين حقوق الآخرين ٠ ان الدولة حارس للنظام ، ومراقب على توزيع المصالح بين الناس ، ولما كان المجتمع ذا نظام رتيب وكانت كل من مراتب وظائفه تطلب مستوى معين من الاستعدادات والمواهب ، فقد أصبح مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين أس القواعد في اعداد ذوي الاهلية للقيام بالمهام المختلفة للدولة ٠

ولكن هل تبقى وظيفة الدولة عند مساندة المواطنين في صعودهم نحو الآفاق الرفيعة حيث تزداد الحياة بهاء وحرية ؟ أولا تحثهم على التعاون على اخضاع ظروف البيئة لمشيئتهم فتجعل هذه الظروف جوا ملائما لازدهار الحياة؟ اذا كان الغرض من الاجتماع هو انماء الحياة بالتجاوب الرحماني واخضاع ظروف البيئة ، ان الدولة تهدف الى ايجاد الجو الملائم لان يستجلي كل من المواطنين عبقريته في حدود استعداداته ومواهبه الخاصة ٠

هكذا يستكمل المجتمع شروط مهامه بالدولة ، كما يستكمل الجسد شروط كيانه بعبقرية ذات تصرف في مصيرها ٠

بنفسج

شعر : خليل خوري

لـك عينان مطلق

وأنـا البحار ، عينان مطلق ،

بحرتا نسغ

شموس ، موانىء تتوهج

اشم عرف البنفسج

أخوض بحرا عميقـا

أخوض بحر البنفسج

وخيالي ،

حمى خيالي على الابعـاد تعـدو

يـا للخيال المضرج

في طريقي الى النهايات هزج والتماع

قلب النهايـات يهزج

أنـا على المد أهزج

بهرج في ضباب غيبوبة زرقاء ،

خضراء ، بهرج أي بهرج

هنا الغوايات شيء ٠

ليس في الظن ٠ غنج من ليسـ يغنج

تقول للشمس موتي

للبدر غب من حياء

للنجم لا تتوهج

هنا الاراجيج ، والتهويم والسكر

والشذا يتأرج

أي دنيـا !

حلى ، وهسهسة ، خصر يغاوي

مواسم تتبرج

ومرايـا هنا ، مرايـا عرايـا

وخيالي في مطلق الصحو يرتج

★ في قصيدة (بنفسج) كما في قصيدة (التراب المسافر) حاولت أن أؤكد أن في وسع الشاعرالعربي أن يطور العـروض دون الخروج عليه ، وأن يستفيد من امكانات البحور العربية ، ومـا تمنحه من حركـات داخلية وخارجية ، وأن يغني التراث دون أن يطعنه ٠

خليل

يتلوى على السنا يتموج

من أين أنحت ماسا ؟

القطن من أرض طيبه ٠٠ !

الخز من جزر الهند ، اللآلي

من أرض عين حبيبه

من منجم ٠٠

قف قليلا ٠٠

رحماك لا تتهدج

مـا زال لحن بقلبي

رحماك لا تتهدج

من أين أحمل ندا ؟

أصوغ للجيد عقـدا

للساق خلخال غنج

للمعصم البض دملج

للشعر تاجا أنيقـا

يـا فوضويا متوج

أقول والنهد أهوج

للنهد للنهد هودج

أنامل الكف هودج

أهداب عيني هودج

أنـا الهوى يـا مرايـا

أنـا المسافر

والبحـار

والوجد ، والتماع العشايـا

عـالم ارتمي عليـه

ألم الصحو بالصحو ، أعرى

أعود طفلا وأنشج

أصيح ملء لهاتي

أحب هـذا البنفسج

يموت عمري عليه

على عبير البنفسج

أيهذا الرجراج يا زئبقيا

أنت أتعبتني فلا تترجرج

يتهـا البنت

يـا بحارا من الغنج احضنيني

أنـا دم يتوهج

لـك عينان مطلق تسجد الابعاد

والغيب ،

مصيري يا مطلقا من بنفسج

يتهـا البنت عجلي

جمح الشوق

احضنيني

دمي دمي يتأجج ٠

٤٢ رأسياً ونصف

قصة بقلم : فارس زرزور

لقد اعتدنا أن نرى الجماجم البشرية في المتاحف ، والقبور المنبوشة ، وخزائن الاطباء .. وأن نشاهد صورها في منعطفات الطرق وعلى خزانات الكهرباء والاماكن الخطرة . أما أن نراها محمولة على الصدور فذلك منظر شاذ .. غريب .. بل مرعب .. ولعل أول جمجمة رأيتها في حياتي ، كانت في خزانة التطبيقات في مدرستي .. واعترف بانني حملتها بيدي ، وتفحصتها بامعان ، ودرست أقسامها جميعا ، وادخلت اصبعي في محجريها ، والصقت عيني مكان الاذن ، لاتتبع بالدقة ثقوب أجهزة السمع .. فعلت كل هذا دون أن يخطر في نفسي أدنى شعور بالخوف او التهيب .. ولم أفكر في أن جمجمتي قد تحمل يوما ما بيد أطفال صغار ، يدرسون أجزاءها ، أو علماء سيكولوجيين يبحثون عن مدى ذكاء صاحبها وعبقريته .. او مدى أصالته بالوحشية والاجرام .. الملهم ..

لقد حملت في يوم ما جمجمة بيدي .. جمجمة انسان .. أو جمجمة مخلوق كان انسانا .. حملتها كما أحمل قلم رصاص .. دون ان اتساءل — على الاقل — ترى هل هي لذكر أم انثى ..؟ ودون ان يخطر في بالي أي سؤال كان .. كان همي الوحيد هو أن أنال علامة في التشريح .. لاقفز الى الصف الخامس .. فقد كنت طفلا ..

أما الآن .. وكلما تذكرت هذه الحادثة .. تعتريني هزة ترعد كياني ، فاثني على شجاعتي التي كانت فائقة .. وعلى طفولتي التي لم تخلد ..

واستطيع الآن ان اعترف وبجرأة ، بأن للجماجم البشرية ، فلسفة خاصة ، وتعبيرات ساخرة او مخيفة .. تنطق بشيء بليغ .. أشد تأثيرا من مواعظ رجال الدين والسياسة والاخلاق .. وباختصار ، يمكنني ان أجزم ، بأن الجمجمة البشرية هي مرآة حقيقية ، نرى فيها انفسنا .. خفايا انفسنا بجلاء ووضوح .. وبصورة تعجز معجزات علماء النفس ، عن كشفها او اماطة اللثام عنها ..

ان الجمجمة البشرية ، هي مكبر دقيق وحساس ، يرينا ضميرنا المسكين ، وهو يتآكل ويفنى ، وتنخر فيه ملايين الديدان الصغيرة .. ان جمجمة ميت تريك نفس انسان .. أليس ذلك مدهشا ..؟

حدث ذلك في يوم من أيام الصيف ، وكان المصطافون في الربوة ، جالسين وسائرين يملأون أفواههم بالصياح والطعام ، وينتشرون زاحفين كالنمل في الثقوب والمنحدرات وبين غيلان الشجر ، متغلغلين في كل الاتجاهات كيوم النشور . وحل المساء ، فانسابت كتلهم تتحرك نحو الطريق العام ، منتظرة وسائط الركوب لتعود الى البيوت . ومر الباص ، وقبل ان يتوقف تسلقه الناس من الابواب والنوافذ ، وراحوا يتدافعون بالارجل والايدي والمناكب ، ولم تقصر الألسن عن الاشتراك بهذه المظاهرة ، فراحت بدورها تجود بما تفيض به القرائح من ألوان السباب والشتائم .. و بكى الاطفال المساكين المحمولون على السواعد ، وتأرجحت رؤوسهم في جميع الانحاء ، كثمار ناضجة على أغصانها ، تهزها أيد شريرة ، فيما كانت أجسادهم الغضة تعصر ما بين صدور وظهور .. وتصايحت الامهات وراحت الافواه تقذف الحمم .. رجال بقنابيز حريرية ولفات أغبانية ، وآخرون بشراويل عريضة وشملات زرقاء .. وشبان ببناطيل وقمصان مشمورة الاكمام .. ونساء ملفوفات بملاءات سوداء محجبات الوجوه ، وأخريات رفعن المناديل في هذه الزحمة الخانقة .. وأوقعت امرأة صرة طعامها — ما تبقى من طعامها — عند مدخل السيارة ، ثم انحنت لتلم الزيتون وفضلات الخبز فشكلت حاجزا يصعب اختراقه . وبسرعة ، ودون أن تدري ، وجدت نفسها تداس بالنعال

الخشنة واللطيفة على السواء • وضاع صياحها في خضم الضجة المتلاطمة •• وحدثت حوادث أخرى أقل أو أكثر أهمية •• ثم امتلأت السيارة • وتكدس المصطافون فوق المقاعد وفي الممر وعلى الارض وحجبوا النوافذ والابواب •• وفوق اكتاف السائق تسلق طفل صغير اضاعته أمه ابان المعمعة فنسى ان يبكي •• ولم يبق هناك مكان حتى لحشرة •• وانتهى الامر •• وعلى بعد خطوتين من السيارة ، اجتمعت كومة من الرجال ذوي الشهامة ، وتكفلوا بانعاش المرأة المطحونة وكانت نائمة ، ونصف عارية تقريبا ••

وظل السائق ينظر في المرآة لا يريم أو ينبث •• في حين كان صراخ يتصاعد من مكان ما من الداخل ، يرجو الواقفين أن ينزلوا والا تعرض السائق لكتابة ضبط •• وبح صوت قاطع الاوراق ، فآثر الصمت بعد أن وجد أن وسائله الاخرى لا تجديه نفعا ، خاصة وأنه هو نفسه ، لم يعد يدري أين حل به الزمان والمكان ••

وأبى السائق أن يتحرك ، وعندما عيل صبره ، ويئس يأسا تاما من استجابة الركاب لنداءات معاونه ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع •

(•• دين هالشغلة ودين هلي علقنا فيها ••)

ثم احنى رأسه وبصق بين قدميه بقرف شديد ••

ــ اسمعوا يا جماعة •• الشرطة ما بترحم حدا •• ما ني مستعد آكل مخالفة ثانية •• اتفضلوا انزلوا ••

مستحيل اتحرك ومعي راكب زيادة ••

وعاد يتأمل المشهد في المرآة •• رأى الركاب الواقفون ينظر بعضهم الى بعض • وضايقه كثيرا رجل لوى رقبته الرفيعة متظاهرا بالصمم • وتطلع آخرون في سقف العربة بلا ادنى اهتمام • وفي الوسط اقسمت امرأة تحمل وجها مستديرا أحمر كقرص البندورة ، بأنها لن تنزل مهما كلف الامر ، وكانت محصورة بين شابين بدا على سحنتيهما أنهما راضيين تماما عن هذا الوضع • حتى أن أحدهما غمغم بكلمات مبهمة فيما كانت يداه لا تكفان عن الحركة ••

وفجأة صاح رجل من الخلف بدا من صوته أنه رجل دين •

ــ انزلوا يا اخوان •• انزلوا •• لا فائدة •• سنركب في الباص الثاني ••

ورد شاب من المقدمة بحنق بالغ •

ــ انزل حضرتك بالاول •• فتململت المرأة المحصورة وبدا عليها أنها تكاد تختنق •• او أنها في حالة يصعب تفسيرها • وكانت تسد الباب الامامي امرأة أخرى سمينة مكتنزة كالفيل ، فكانت الضحية الاولى لاذعان أحد الركاب للنزول ، فقد نطحها في صدرها برأسه ، ثم سقط واياها على الطريق •• وبعدها حدث كما لو أن معجزة قد تحققت • اذ هبط الواقفون جميعهم • وفي لحظة ما ، وجدت المرأة ذات الوجه المتقدج انها بقيت وحيدة ، فشخرت من أنفها شخرة نابية ، وقبل ان تتحرك من مكانها القت على السائق نظرة مسحوقة تنفح بالكيد •• ثم سحبت نفسها الى الباب •• وتنفس الجالسون الصعداء ، واعطى المعاون ــ وكان قد ظهر شبحه لاول مرة ــ ايعازا الى السائق باستئناف المسير •

ولكن هذا لم يتحرك ، بل راح ينظر الى الباب بجمود • ثم مد يده ليساعد أحدا على الصعود • وظهر في المدخل شاب يسند على صدره حملا خفيفا وبسيطا للغاية • كان يسند على صدره لوحا خشبيا مربوطا الى نطاق من الكاوتشوك ومعلقا في رقبته • كما يفعل بائعوا الخردوات المتجولون • وعلى اللوح الخشبي كان يتكوم نموذج بشري ، أو هو مشروع لفكرة سقيمة عن خلق انسان •• كان النموذج عبارة عن جمجمة وساقين وأشياء أخرى •

كانت الساقان متصالبتين ، تنتهي كل منهما برجل صغيرة مكورة ، وأصابع دقيقة متقلصة غير كاملة النمو •• وفوق الساقين كانت الجمجمة تهتز على صورة تبدو فيها انها غير مستندة على شيء •• والواقع أنه كان يظهر بصعوبة قضيب رفيع وقصير من العظم والجلد ، يفصل الجمجمة عن الساقين ، ويتفرع منه كمان صغيران باليان ، ينتهي أحدهما ببراعم معقوفة شبيهة بمخالب النسر ، متداخلة فيما بينها بحيث يصعب عدها • وينتهي الكم الآخر باصابع أخرى أطول من الاولى ممسكة بتفاحة ذابلة مقضومة من بعض جوانبها • وكان يبدو على الجمجمة انها صماء لا تتحرك الا من الاهتزازات المتأتية من حركة الرجل حامل النموذج ••

كان قد غرس في جبهتها أنف دقيق ذو فوهة واحدة مطموسة • وعلى جانبيها نبتت اذنان مفرطتان في الصغر • وتحت الانف كان يوجد فم عادي مغلق ، ذو شفتين طبيعيتين تماما • وفي الاعلى تفتح وقبان واسعان عن عن عينين واسعتين ثاقبتين تترجرجان كنقطة الزئبق • ولعل هذه البادرة هي كل ما يجعل هذا النموذج ينبىء بأن له صلة ما ، بعالم الاحياء •

وقف الرجل في مقدمة السيارة دون ان يكترث بأحد ، وراح بعينيه يبحث عن مكان شاغر • ورغم أنه لم يكن يهدد أحدا من الركاب بأية وسيلة من وسائل الرعب او الفناء ، الا أنه أصبح بلحظة قصيرة مهيمنا على كل شيء •• اذ تعلقت أعين الركاب بهذا الشيء المحمول على صدره ثم تكشفت عن أعماقها أشباح ابليسية مقيتة

ترقص من الفرح ولكن بصورة مفزعة . وجمدت الاعين وتقلصت الاجساد وحبست الانفاس حتى أصبحت كالتماثيل . . أما الوجوه فقد تجسد عليها الاثم وراحت ترتسم على صفحاتها أشكال رهيبة ، وظلال قاتمة سوداء، وهي تعكس بوضوح ما يتفاعل في نفوس أصحابها من استعراض للحوادث .

كانت عظام الساقين بارزة داكنة اللون . ولولا تلك الجلدة الرقيقة المثقوبة مكان العينين والتي تغطي ذلك الهيكل لما ظن انسان بانه مخلوق حي .. ولعل ذلك الاديم الشاحب كان هو وحده ما يمنع الاسنان عن البروز ، والا لما بقي أحد في السيارة الا وقذف نفسه الى قارعة الطريق . وتجلد بعض الراكبين من ذوي النيات الحسنة ، وطمأنوا نفوسهم بأن هذا الهيكل ما هو الا نوع من تلك الاعلانات التحذيرية التي يكتب تحتها (احذر خطر الموت) ولكنه رغم ذلك كان اعلانا بغيضا لانه حي ومتحرك ..

ظل الرجل حامل الاعلان يقف جانب السائق شامخ الانف مرتفع الرأس وكان طويل القامة ويرتدي لباس من النوع الخاكي ، ويحجب رأسه بغطاء من النوع نفسه . وكانت تبدو على ملامحه سيماء الفخر والاعتزاز وكأنه بطل قلد وسام الشرف .

وأخلي للبطل مكان في الصف الخلفي ، فسار بين صفي المقاعد بخطى وئيدة يلتمس مكانه . وعندما وصل اليه ، انحنى قليلا لينزع النطاق عن كتفيه ثم وضع حمله على الارض في الممر الضيق .. جرى كل هذا والهيكل لا يتحرك . ولكنه عندما أحس ـ كان يحس ـ أنه أصبح في مكان منخفض بدرت منه حركة مفاجئة غيرت معالم الوجوه من جديد ، وحركت زناد الالسنة المبكمة .. فقد اهتزت الجمجمة من تلقاء نفسها ورفعت رقبيها الى الاعلى وأخذت تتأمل الفراغ ..

وحشرج رجل كان قريبا من المكان ـ يارب .! عفوك .. آه .. يارب .. ثم رمي رأسه فوق ساعديه واستراح على مسند المقعد الذي أمامه . وغطى رجل الدين وجهه بيديه العريضتين وشرع في قراءة دعاء ابتهالي .. وفي مقعد آخر صرخت امرأة عجوز ثم صمتت فجأة ، وأكبر الظن أنه أغمي عليها .. وقفزت امرأة من مكانها لتهرب ثم سقطت في حجر شاب الى جانبها ذاهلة خرساء .. وارتسمت على سحنة شيخ قصة السنين الغوابر وراح يذكر اليتيمة التي ابتزها نقودها .. وبينما كان المصطافون يعترفون بآثامهم ويتمثلونها خير تمثيل ارتفع كم الهيكل ذو التفاحة الى الفم المغلق ، وراحت الاسنان تقضم من جوانبها قضمات صغيرة .. وهنا أطل الطفل الذي كان ضائعا من فوق كتف أمه ، وصاح بجذل .

ـ ماما .. شوفي .. عم يأكل تفاح ..

وضمت الام طفلها الى صدرها ، وعصرته بشدة . لتخمد أنفاسه او تسد حلقه .. وراحت تتساءل

ـ يا ترى هل يعرف زوجي ؟

وتقلصت زوايا فم الام واعترى وجهها شحوب قاسي المرارة ..

وكانت السيارة تدرج ببطء شديد ، وفي داخلها تدوم الدعوات والابتهالات ، وكأن السائق نفسه كان يتوقع حلول كارثة لا يعرف كنهها ، وكأنه يقود سفينة غارقة الى شاطىء لا أمان فيه .

وكان يجلس الى جانب الحمال شاب في مقتبل العمر ، قرأ بعض الكتب وحصل على شهادتين دراستين. فدفعه الفضول الى التمعن في تفاصيل هذا الهيكل ومحاولة دراسته عن كثب . وراح يتساءل :

لا شك أن لهذا المخلوق حواس كاملة كحواسنا تماما.. فله أذنان تسمعان الاغاني والضجيج.. وعينان تريان العالم البديع .. ونصف أنف يشم فيه رائحة الزهر .. ولسان يتذوق فيه طعم التفاح .. وهذه الحواس لا شك أنها تقوم بعملها ولو على صورة غير كاملة .. ثم تنقل الى روح هذا المخلوق الحي تفاصيل مدهشة ..

و .. تاه الشاب في دوامة من الخواطر .. فلم يستطع الاسترسال بها .. من أجل هذا رفع جبينه الى الحمال وسأله بتهيب :

ـ كيف يعيش هذا الانسان ؟

فحدجه الحمال بنظرة ساخرة ، وفضل أن يجيب على هذا السؤال السخيف، غير أنه تمعن النظر في محدثه مليا فأشفق عليه وأجاب باختصار :

ـ يعيش مثلما يعيش كل الناس ..

قال الشاب وقد ضاعفت هذه الاجابة من فضوله :

ـ هو يسمع ويرى ويذوق طبعا ..

ورد الحمال بدهشة :

ـ طبعا .. مثلك تماما ..

قال الشاب بعصبية :

ـ ولكن أنا أفرح وأتألم .. وأقدر أن أعبر عن انفعالاتي ..

ورد الحمال بنفاذ صبر :

ـ وهو أيضا يفرح ويتألم ..

وفكر الشاب :

(ترى هل تعصف في جمجمته زوابع الالم كلما أحس بالنقص ؟)

ومن الغريب أن يخمن الحمال على الفور ما دار

في رأس الشاب لانه قال :

– على كل حال ما أحد عاش في رأسه ٠٠ وتشجع الشاب فرفع الكلفة وراح يسأل :

– والآن ٠٠ وقت صاح الطفل ٠٠

– ما رأيت وجهه ؟

– رأيته ٠٠ ولكن ما لاحظت شيئا ٠٠

– على كل حال ٠٠ ما تطلعت مليح ٠٠

وقال الشاب بلهجة حزينة :

– مسكين ٠٠ أين لقيته ؟

أجاب الحمال بنبرة غاضبة :

– لقيته !٠٠ العمى ٠٠ هذا أخي ٠٠ ابن أمي وأبي ٠

ويبدو أن بقية الركاب كانوا مشغولين مع ذواتهم، فلم ينتبهوا الى هذا الحديث ٠٠ ولكنهم استيقظوا دفعة واحدة على صوت صفارة الشرطي، الذي تصدى للسيارة عند كيوان ٠٠ فضغط السائق على الشكائم واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ٠٠ وصعد الشرطي ، ببنوده البيضاء وبيده دفتره العتيد ٠٠

– أوراقك ٠٠

ورد السائق ٠٠

– لماذا يا أفندي ؟

– لانك حامل زيادة ٠٠

– أين يا أفندي ؟

– هناك ٠٠ واحد بين المقاعد ٠٠

ورد السائق بدهشة :

– بين المقاعد ٠٠ ما في أحد ٠٠

– اخرس ٠٠ أنا لا أكذب ٠٠

– ولكن هذا ليس راكبا ٠٠ يا سيدي ٠٠

ورد الشرطي باستغراب :

– ما هو اذن ؟٠٠

– طيب ٠٠ انت لاحظته ؟

– بلا فلسفة ٠٠ هات أوراقك ٠٠

– ولكن يا سيدي ٠٠ أنا مستعد أعطيك أوراقي ٠٠ حتى تتأكد أني مخالف ٠٠

ورفع الشرطي يده وراح يحصي الركاب : (واحد ٠٠ اثنين ٠٠ أربعة عشر ٠٠ اثنان وأربعون ٠٠ و ٠٠)

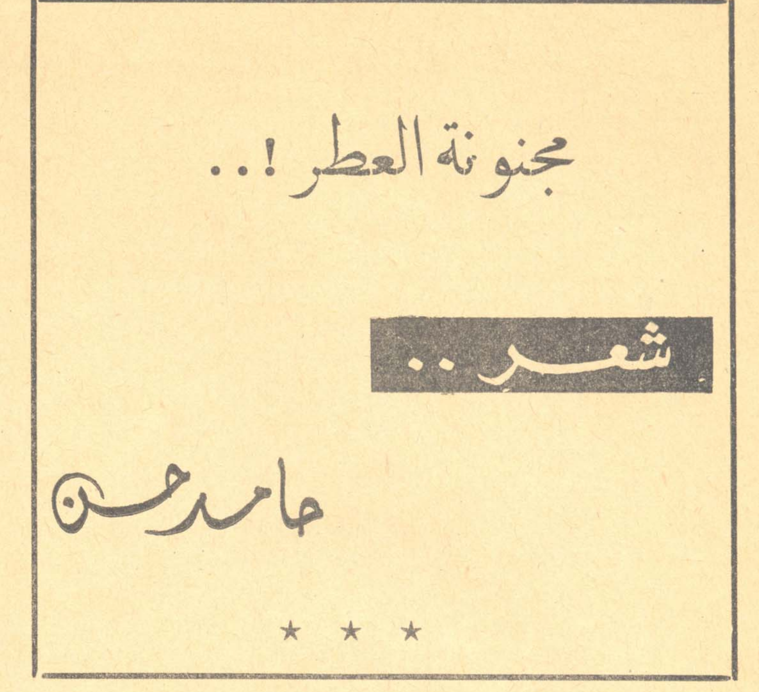
وعندما اقترب من الهيكل ٠٠ رفع هذا اليه عينين دهشتين ٠٠

فصرخ الشرطي :

– ونصف ٠٠ ونصف ٠٠

ثم قذف بنفسه من الباب الخلفي ٠ وراح يطلق صفيرا حادا ٠٠ حادا كنصول السكاكين ٠





محسودة الطيف : لولا ما نعمت به ... وغار منه الورى ، لم يخلق الحسد
طافت عذارى رغابي في السفوح ، وفي ... ملاعب الطيب ضلت مقلة ، ويد
أوردت عيني نعمى طيفه ، فعلى ... جفني تتكىء النعمى ، وتتسد
مجنونة العطر : هبت منه زوبعة ... مجنونة ، فانتشى ، واستسلم البلد
ترنح اللهف المحموم في جسدي ... عفو العيون الصبايا : انه جسد
ظمآن ، في شفتي الصيف متقد ... والكأس تومىء للظمأى ، ولا أرد
والقانعون : سألت الفجر ، هل عبروا ... في دربه ؟؟ وسألت الليل : هل ولدوا ؟؟
في الكرم ـ كرم شبابينا ـ معتقة ... صهباء ، حن لها أمس الهوى ، وغد

سبحت أضواء

شعر : حنا الطيّار

ما ينفع التشبيه يا حسناء ... ماذا أقول .. ؟ وتستحي الاسماء
أشياء هذا الكون لا معنى لها ... لولاك .. لا طعم لها الاشياء
سوداء في عيني كل وجوهها ... حتى الشموس سحابة سوداء
أجلو بعينيك الوجود فانتشي ... فاذا الوجود قصيدة عصماء
لمن الشعاع ؟ لمن تسلسل كالحلى ... حلت به أعطافها الغبراء
ولمن أطل الفجر ينثر لؤلؤا ... في كل شيء لؤلؤ أنداء
حشت الورود جيوبها بنفيسه ... فتفتقت وتضوعت أرجاء
وشدت مع العطر الفتيت صوادح ... فكأنما ألحانها صهباء
حسناء .. هذا الكون كل ربيعه ... ـ لمتوج ـ وبغيره صحراء
من أجله .. الاطياب والاجواء ... والفجر والتغريد واللألاء
ومواكب المعبود مترفة الخطا ... فاذا تحرك سبحت أضواء

من صفحات الأدب الإسباني

سرفنتس ودون كيشوت

بقلم : الدكتور نادر العطار

غمرت الادب الاسباني ، في مطلع عصر النهضة ، موجة عارمة من روايات الفروسية التي كانت معروفة في الادب الفرنسي قبل ذلك ، والتي تميزت بأعمال باهرة وبطولات خارقة تستهدف أعلى المثل الدينية والخلقية ، وقد جنح فيها الكتاب بخيالهم مع الزمان ، حتى تسرب الملل الى نفوس القراء ، ومالوا عنها الى القصص الواقعية ، وبدأنجم هذا النوع من الادب بالافول حتى القرن السابع عشر ، حينما وجه اليه سرفنتس آخر الضربات التي قضت نهائيا عليه ، ورفعت الاديب الاسباني الاول الى قمة المجد .

* * * *

ولد ميشيل سرفنتس سنة ١٩٤٧ ، وكان أبوه طبيبا جراحا اعتاد التجول في اسبانيا بين بلد الوليد ، واشبيلية ، ومدريد يعرض خدماته الانسانية على امرائها ووجهائها ، في سبيل ربح كان يقل ويكثر حسب الظروف ، فكان هذا التنقل والتجوال في تلك الوديان الدافئة الخضراء التي تملأ الاندلس ، مدرسة كبرى شحذت قريحة الفتى الناشيء ، ووسعت الآفاق أمام خياله الخصيب ، حتى اشتد ساعده فاستقر في مدريد وهو في الواحد والعشرين من عمره ، وكانت أوروبا آنئذ تجتاز فترة حاسمة من تاريخها ، فقد امتد سلطان الاتراك في آسيا وافريقيا ، وتوسعوا في البلقان ، وانتشرت أساطيلهم تهدد مصالح دول الغرب الناهضة في الصميم .

وجرت اتصالات سريعة ، وتنادت أوروبا للوقوف في وجه هذا الخطر الاسلامي المحدق ، وسارعت اسبانيا وروما وجنوة الى جمع الاساطيل ، ومقارعة العثمانيين الحرب والنزال .

وكان ميشيل سرفنتس من الجنود الذين لبوا الدعوة للقتال ، وتطوعوا في الاسطول الذي خاض مع العثمانيين معركة ليبانتو الحاسمة ، ورغم أنه كان يوم المعركة (٧ ــ تشرين الاول ــ ١٥٧١) مريضا تلهب الحمى جسمه الهزيل ، الا أنه تحدى المرض ، وأبى الا أن يشترك في المعركة بشكل فعال ، حيث أصيب بجراح شديدة وفقد ذراعه الايسر ، الامر الذي أقعده في مستشفى (مسينا) سبعة أشهر ، عاد بعدها الى القتال ، حتى أخذ منه التعب والضجر ، فطلب اعادته الى اسبانيا ، وأجيب فعلا الى طلبه ، بعد ان زوده حاكم صقلية بكتاب توصية شخصي ، نوه فيه بأهمية الفتى ، وبالغ في اطرائه والثناء عليه .

الا أن سوء الطالع شاء ان يقع المركب (الذي كان يقله) أسيرا في أيدي بعض أبطال البحر الجزائريين ، الذين عثروا مع سرفنتس على كتاب التوصية آنف الذكر ، فحسبوا أنهم قد قبضوا على أحد الابطال الميامين ، وبالغوا في طلب الديه ، ولم يكن في وسع أسرة الاسير دفع تلك المبالغ الطائلة ، فظل حبيسا بين الجدران ، يكتب القصص ، ويدبج الروايات التي غلبت عليها الصفة المغربية مثل : حمامات الجزائر، والسلطانة العظيمة ، ومشاهد الجزائر ، وتاريخ الاسير الخ .. حتى استطاع العودة الى اسبانيا بعد خمس سنين طوال، عامله فيها المسلمون بشكل انساني ، رغم انه حاول الافلات مرات عديدة ، دبر في احداها أمر غزوة اسبانية

كاملة على الساحل الجزائري .

ومرت عليه فترات من اليسر والفاقة ، أجبرته على الانصراف الى الكتابة وقرض الشعر ، التماسا للرزق ، وبحثا عن أسباب العيش ، وكانت عبقريته قد تفتحت أيام الاسر ، فبدأت قريحته تفيض بالمزيد من الثروات الادبية التي طغت على عصره ، وجعلت منه شكسبير اسبانيا ، وسيد أدبائها في القرن السابع عشر بلا منازع .

* * * *

ولعل المجال يضيق في هذه العجالة عن ايفاء سرفنتس حقه كأديب ، ولكن يمكن القول انه طرق جميع أبواب الادب ، فكان شاعرا موهوبا ، وكان روائيا حاذقا ، وكان قصصيا بارعا ، ترك ثروة أدبية ضخمة كان أبرزها : الغجرية الصغيرة ، وثمان تمثيليات فكاهية ، والروايات النموذجية ، والعاشق المبذر ، وقوة الدم ، وغيرها ، الا ان أقواها وأشهرها على الاطلاق كانت قصة (دون كيشوت) التي تعد مفخرة الادب الاسباني .

خرج الجزء الاول من هذه القصة الى الحياة للمرة الاولى سنة ١٦٠٥ ، وكان الهدف منها ، كما صرح بذلك مؤلفها شخصيا ، تسفيه قصص الفروسية والاقلال من شأنها ، وقد حقق ذلك فعلا ، الامر الذي أعطى كتابه بجزئيه صبغة خاصة ، وأهمية بالغة ، واذا عرفت ان الكتاب طبع في حياة سرفنتس فقط سبعة عشر مرة ، عدا عن ترجمته الى مختلف اللغات الحية ، أدركت المدى الذي وصل اليه من شهرة وانتشار .

ولقد قيل عن قصة (دون كيشوت) ان كل امرىء يرى فيها ما يريده ، حسب عقليته وطريقة تفكيره ، ذلك لان المؤلف مكثف ومعقد الى درجة تجعل تفسيره والتعليق عليه لا يمكن ان يحد باي اطار ، ولذلك يجدر بالقارىء أن يطرح جانبا كل رأي آخر ، وأن يعمد الى قراءة القصة بنفسه مرارا عديدة ، ولكل مرة لذة خاصة ، ليكون رأيه الشخصي فيها ، ثم يعمد الى آراء الادباء ، واحكام النقاد ليكمل معرفته ، ويستجلي ما خفي عليه ، ثم يطلق حكمه الاخير .

ويتلخص الموضوع ، في أن أحد الفتيان (دون كيشوت) انصرف الى قراءة أقاصيص الفروسية الخيالية وبطولات فرسانها حتى ملكت عليه لبه وسيطرت على عقله ، فقرر ان يكون فارسا مغوارا يحمي الضعيف ويعيد الحق الى نصابه وفعلا يتنكب سلاح القرون الوسطى ودروع فرسانها ، ثم يخرج في جولات وصولات حيث يصطدم بالواقع الاليم ، واقع العصر ، الذي يعطيه في كل مغامرة درسا قاسيا يشعر القارىء بالشفقة الرقيقة الى جانب الابتسامة العريضة الساخرة ، وهكذا يسير مع بطل القصة ، باسلوب شيق جميل ، حتى يأتي عليها وكله رغبة في استعادة فصولها ومشاهدها .

ويخرج دون كيشوت الى مغامرته الاولى وحيدا ، ثم يستصحب معه مرافقا وخادما هو (سانتشو بانثا) وهكذا تبرز الشخصية الاساسية الثانية ، التي تناقض الاولى وتبرز سخفها وحماقتها دون ان تخالف واجبات الطاعة ، وتحقق نوعا من التوازن المعقول . وتسير حوادث القصة في تسلسل لذيذ من مغامرة الى مغامرة ، حتى يعاني البطل العذاب ومرارة الانكسار في اصطدام مع فارس (القمر الابيض) ، حيث تعيده الخيبة الشديدة الى رشده ، ولكن الموت يعاجله ، فيقول وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة ان الله قدر له ان يعيش مجنونا ، ويموت عاقلا .

ولعله من المناسب ايراد احدى تلك المغامرات بنصها وجوها الخاص ، لاعطاء فكرة عن مجمل القصة دون الدخول في تفاصيلها الطويلة ، آخذين مثلا مغامرة (قطيع الغنم) ، مع الاخذ بعين الاعتبار ما في الاختصار دائما من غبن وانتقاص من القيمة الادبية للنص الاصلي:

* * * *

.. وهكذا كان دون كيشوت ومرافقه يسيران ويتسامران ، عندما لاحت للفارس موجة عارمة من الغبار الكثيف ، فالتفت الى سانتشو وقال :

ـ ها هو ياسانتشو ، اليوم الذي سترى فيه ما يخبئه لي الحظ ، نعم ، ها هو اليوم الذي يجب علي فيه ان أظهر مدى قوة ذراعي ، وأقوم بأعمال تخلد ذكراي على مر العصور المقبلة .

هل ترى تلك الموجة من الغبار التي ترتفع هناك ؟

انها تخفي بين ذراتها جيشا لجبا ، لا عداد لجنده القادمين .

فقال سانتشو :

ـ لا بد انهما جيشان ، لان موجة أخرى مماثلة من الغبار ترتفع من هذه الناحية المقابلة .

وهنا التفت دون كيشوت ، ورأى فعلا غبارا كثيفا يرتفع من الطرف الآخر ، فبدت عليه امارات السرور العميق ، وظن انهما جيشان حقيقيان قادمان للقتال في ذلك السهل المنبسط ، لان مخيلته كانت مليئة دائما بأخبار تلك المعارك والمغامرات التي طالما قرأ عنها في كتب الفروسة ورواياتها ، بشكل سيطر على عقله وتفكيره ، وملأ أحاديثه وأقاصيصه .

وسأل سانتشو :

ـ ماذا يجب علينا ان نفعل الآن يا سيدي ؟

ـ ماذا ؟ طبعا حماية التعساء والضعفاء . ويجب ان تعلم يا سانتشو ان الجيش القادم من أمامنا يقوده امبراطور سيلان العظيم (علي فانفارون) أما الجيش الآخر القادم من ورائنا ، فهو جيش عدوه (بنتابولين) ملك كارامانتاس ، الذي يخوض المعارك دائما وهو مشمر عن ساعده ، فاصغ الي ، وانظر جيدا لاني أريد أن أدلك على أشجع الفرسان في هذين الجيشين ، ولكي تراهم على أكمل وجه ، تعال نتسلق هذا المرتفع الصغير القائم هناك ، لينكشف لنا من قمته الجيشان المتحاربان.

ثم مضى يعدد المقاطعات والبلدان ، واصفا كلا منها ، معددا ما تشتهر به مما كان قد قرأه في كتبه الكاذبة . وكان سانتشو يصغي اليه بانتباه شديد دون ان ينبس ببنت شفة ، ويستدير الى الوراء بين الفينة والفينة علّه يتبين شيئا من الفرسان والعمالقة الذين يعددهم سيده ، ولما عجز عن رؤية شيء البتة ، قال أخير :

ـ فليأخذني الشيطان ياسيدي ان كان هناك رجل أو عملاق أو فارس ممن تتحدث عنهم ، أو على الاقل انني لا أرى أحدا منهم ، ولعل ذلك خيال في خيال ، كأشباح الليلة الماضية الذين شغلوك .

ـ كيف تقول ذلك ؟ ألا تسمع صهيل الخيل ورنين الابواق وضجيج الطبول ؟

ـ انني لا أسمع شيئا آخر غير أصوات الماعز والخرفان ، وتلك هي الحقيقة لان القطيعين أخذا يقتربان منا بشكل مرئي .

ـ بل انه الخوف الذي يسيطر عليك ، يجعلك لا ترى ولا تسمع ، لان الخوف يفسد الحواس ويجعل الاشياء تبدو على غير حقيقتها ، واذا كنت خائفا ، فانسحب جانبا ، ودعني وحيدا ، فاني كاف وحدي لاعطي النصر لمن أحارب في صفه .

قال ذلك ، ثم ثبت نفسه على جواده ، وسدد رمحه الى الامام ، واندفع بسرعة البرق ، بينما كان سانتشو يصيح به :

ـ ارجع يا سيدي ، أقسم بالله العظيم انها ماعز وخرفان تلك التي ستثخنها بالجراح ، ارجع بحق السماء ، ما هذا الجنون ؟

انظر ليس هناك أي عملاق ولا فارس ، ماذا تفعل ؟ اغفر لي يارب !

ولكن دون كيشوت لم يلق اليه بالا ، بل كان مندفعا كالسهم وهو يصيح :

ـ الي أيها الفرسان ! يامن تحاربون تحت راية الامبراطور الشجاع بانتابولين المشمر الذراع ، اتبعوني جميعا ، وسترون انني سأنتقم لكم من عدوكم (علي فانفارون) .

ثم تغلغل بين خرفان القطيع ، وأخذ يطعنها بشدة وشراسة وكأنه يقاتل أعداء حقيقيين ، حتى سالت دماؤها ، وتراكضت من حوله مذعورة لا تلوي على شيء. وذهل الرعاة ، وأخذوا يصيحون به رادعين ، فلما أعيتهم الحيلة ، حلوا مقاليعهم ، وشرعوا يقذفونه بحجارة ضخمة من حجم قبضة اليد ، بينما كان الفارس المغوار يردد باعلى صوته :

ـ أين أنت ياعلي فانفارون المختال ، الي الي ، فلست الا فارسا واحدا يريد ان يختبر قوتك وجها لوجه ، وينتزع منك الحياة ..

وهنا أصابه حجر كبير في صدره ، غرس بعض أضلاعه في لحمه واسال منه الدم ، وكان الالم شديدا الى حد ظن معه انه مائت لا محالة ، فتناول وعاء كان قد اعده (اعتمادا على كتبه) لشفاء الآلام ، وشرع يعب منه ما استطاع ، ولكن حجرا آخر عاجله في فمه فحطم الوعاء ، وخلع له أربعة أضراس ، وكسر أصبعين من يده بشكل اليم ، وكانت الضربتان من الشدة بحيث القتا به عن الحصان الى الارض بعنف ، فهرع اليه الرعاة ، ولما وجدوه فاقد الحراك ظنوا انهم قتلوه ، فجمعوا حوائجهم بسرعة ، وتراكضوا هاربين .

وفي خلال كل ذلك ، كان سانتشو يراقب حماقات سيده ، وهو يشد لحيته ، ويلعن الزمان والمكان الذين جمعاه به . وما ان رآه ملقى أرضا وقد هرب الرعاة ، حتى أسرع اليه قائلا :

ـ أما قلت لك ياسيدي ان تعود ، وان من كنت تريد قتلهم لم يكونوا كماة ولا رماة بل خرفانا وماشية ؟ فأجابه دون كيشوت بصوت متحشرج :

ـ اعلم ياسانتشو ، ان الحكماء القادرين يستطيعون تغيير شكلنا كما يريدون ، وان هذا الخبيث الذي يتبعني قد حول الجند والفرسان الى ماعز وخراف ، واذا كنت لا تصدقني ، فاتبعهم ببطء ، وسترى كيف يعودون الى شكلهم الآدمي الاصلي بعد مسافة قصيرة ، كما صورتهم لك تماما .

ولكن بربك لا تذهب الآن ، لاني بحاجة اليك .

اقترب مني ، وانظر كم ضرس وكم سن قد انكسر في فمي ، اذ لا يظهر لي مع كل هذا الالم انه لم يبق في فمي ضرس واحد ..

الشعر الفرنسي بين القديم والحديث

بقلم : زكية الصوفي



كانت القصيدة شيئا قائما بذاته ، قلما تتصل مع مشاعر ناظمها وأوضاعه بصلة، فالشاعر كان يتوخى قبل كل شيء فنا أدبيا صافيا ، غرضه هز مشاعر الانسان ، واثارة كوامن نفسه .

كان الشعر يوجه لفئة خاصة من الناس ، مصطفاة تفهم الشعر وتتذوقه وتنشده ، فألفت به المسرحيات التي كانت تمثل أيضا لفئة مختارة ذواقة ، ترفع الشاعر الى الاوج او تجعله يهبط الى الحضيض .

وتغيرت الاوضاع بتغير نظام الحكم .. فرأينا الجماهير التي أصبحت قادرة على القراءة ، تتذوق الادب . كما رأينا الفن الادبي يهبط من سماء الشاعرية المطلقة الى الوسط الواقعي ، بسبب التطور الاجتماعي الكبير .. وانصرف الشعب المتعشق للرواية عن الشعر ، وفقد شغفه بالايقاع تدريجيا ، وانقض على النثر الذي اتجه بكليته الى الشعب ، متناولا أوضاعه ومعالجا مشاكله ..

وتتطور الشعر مع المدنية الحديثة .. وسمع في العشر سنين الاخيرة غناء مختلف .. وظهر شعراء شباب جدد .. لنستمع اليهم لعلنا نرى على ضوئهم الى أين وصل الشعر الحديث ..

لنصغ الى أبيات « هنري دلوي » ، والى قصائده القصيرة الموقعة بحرفي (ف . ث) التي ينشدها كشاهد عيان لمأساة الجزائر .. ولنتبعها بقصيدة للشاعر (غو) لنرى ما حدث لشعر المناسبات :

من شعر هانري دلوي

هذه الحرب لها من العمر خمس سنين

الموتى يتقدمون في الزمن
الدم يهرم
الخناجر لا تزال ترتجف
تحت قشرة الجلد
الفصول تتغير
ولكن هذا الشتاء يبقى نفسه
دائما نفسه
متجها نحونا كالضباب
هي ذي تزداد دنوا منا
تحت الرايات المرتجفة
رايات تزال ساخنة .

الجزائر

ان « جزائرك الفرنسية »
ذات الظهر المنحني
والبطن المعرض للشمس
انها ليست الجزائر
ولا فرنسا
في مدخل الحي
زرع الازدلخت
كي يكون ظلا
لنساء القادة
لنمشي تحت الشمس
الثلج يذوب على الجبال
الحقول خضراء في كل مكان
لم القتال ؟
يا رفاق
الارض واسعة تكفينا جميعا .

حرب ليس له حد

البلاطات في الشارع
هي أشواك الالم
المارة في الشارع
هي دعائم الموت
الاولاد في الشارع
يحملون أكثر من الاحلام
يتهيئون كي يعيشوا تحت الضغط الجديد
حيث الدم يغلي في العروق
يبسطون الخطـا
لم يبق لهم الا القليل ليأخذوه في طريقهم
المستقبل أمامهم
ومع ذلـك
أصوات تسري طول الجـدران
دون أن تستقر في مكان
الحرب تستمر ٠

نحو الجبـال

الكتيبة تسير تحت جنح الظلام
تحت العمرة ، بم يفكر كل منهم ؟

* * * *

البندقية على كتفهم
الجنود يعودون الى المعسكر
وحولهم
القمح ينمو
والبناؤون يبنون البيوت ٠

من شعر (جان ميشيل غو)

أغني الازمنة

أغني الازمنة القاتمة التي أعيش فيها
اننا نسير بين الجثث العارية
سكارى من الكلام ، سكارى من الدماء ومن السخرية
ننام في ضجيج الاسلحة
تعاسة عادية حيث السعادة مقيدة
في العشرين كنا نفكر بالموت او بالنصر
ان بطء سير الايام التي تمر
تركنا متألمين من عدم صبرنا
قطف زهرة
ليس سهلا
في يومنا هذا
ان ذلك يسير مشاكل

* * * *

الجاز ٠٠ ربما كان ذلك ثورة
وانتم لا تقدمون لنا الا موسيقا حزينة
مواكب باهتة ، حروب مستعمرات ٠
انتم الذين تتكلمون عن الشباب
خذوا حذركم من قراراتكم
فالمرارة أصبحت اليوم لقب شرف
انظروا ماذا فعلتم ٠

قال غوته : « كل شعر هو للمناسبات ٠ » غير ان تموجوت المناسبات اختلفت مـع الانـوار الجديدة ٠٠ لنستمع الآن الى الشاعـر الشـاب (كولينيـون) في قصيدته :

سجين

عندما تعلم بموتي
اقترب من البيت
ان قلبي يعانق السكوت
ويفتح الباب لليل
أيها الرجل الذي يسير وحيدا
حزينا محاطاً بقناعه
بين أطلال مدينتي
والقمر الحزين
انني ما قتلت أحدا قط
وأدع الكواكب تبكي
انني ما سرقت نارا قط
انني ما أحببت الشر قط ٠

هذه اللغة ، كـم هي بعيدة عن لغـة الشبـاب المألوفة ! الشباب يتكلم عن الموت ولكن أي موت !

ورأى الشعر بأنه لا يمكنه الاستغناء عن النثر ٠٠ فاقترب منه الى حد أصبح فيه من الصعب تمييزه عنه ٠

وهذا نموذج من الشعر الانسري الحديث للشاعر فرنسواكريل ٠٠

ليست الازمنة هي نفسها
ولا نفسها هي القصائد
أؤكد
بأن الحب يملك كمية أكبر
من السحر
حنثت يميني ألف مرة
الكواكب هي قريبة منا الى درجة
في هذه الايام
كالاوتوبوس الذي يمر
في الشارع وزجاجه مشع
مثل الحوار بصوت خافت
في الخريف
مع النفس ومع العالم
من الممكن أن أكذب
وربما لم أفهم مشاعري
ربما أخطأت
انني أزن وزني ترابا
وطينا مبلولا

انني لا أساوي وزني ذهبا
أعتقد بجنون بقوة الشعر
شفاه النار
ستتلاقى
مع شفاه النار
جميع أنواع الملاطفة
الليل
يرفض
أن يكون الليل
بقع من العشب والمرايا
ترتجف في الظل
تشوشي
لانني لم أعد أستطيع
أن أعد
الموتى
لقد وجدت طريقي في
يأس أطفال ضالين
الشحاذون عند مفترق الطرق
هم جد عاديون
أيها الشباب الذين يتمتعون بفضيلة
ظن نفسهم أحياء الى الابد
يا شبابي أين أنت
أنت الذي تزينه السنون
أنت الدامي من وطأة صدمة
الزمن الذي يضرب ويدمرنا
ولكنك شبيه بصياح الديك
الذي ينقذنا من الليل
يا شبابي الذي يشبه السهم
أيها الامل الموجه نحو السكوت
موسيقا الافكار الهادئة
افتح أبواب جهنم
وصب خمر براءتك
كفى تألما كفى تألما
في جميع تخوم الغياب
افتح القبور حيث يرقد
المدفونون أحياء
أنتم الذين تحول عيونهم
رماد الفجر الى شمس مشرقة
افتحوا القبور
قولوا للمارة
بأننا اتبعنا بصورة مدهشة
الطريق المفروشة بالدماء
والتي (اسفلتها) يذوب بالشمس
نعيش كما يرفع المرسى
في الاعاصير
ماذا تهم بقعة الحبر
على قماش جلدي أصفر

ان هذا التطور لم ينشأ عن عدم قدرة الشعراء على النظم التقليدي ٠٠ اذ أن معرفة وضع مقاطع السكوت ، والراحة والجمع بين جرس الحروف الجميلة الوقع على الاذن ٠٠ كل هذا ٠٠ مهنة ، ويمكن أن تعلم دون مشقة ٠٠٠ ولكن ربما كان مرد هذا التغيير هو الرغبة في جعل الفن في متناول الرجل ، الرجل الذي ينصهر مع الآلام الانسانية ، ويستطيع أن يخرج عن كيان جسمه ويتصل مع عالم غير العالم الملموس ، وينظر في أعماق روحه ٠٠ ليأتيه وحيه الشاعري من خلال طبقاته اللاشعورية العميقة ٠٠ فيهتز كيانه ويسجلها دفقات ما أن ينشدها حتى تهز مشاعر السامع اذ أن تموجاتها طبيعية وتعبر عن مجموع المخلوق البشري الذي يتحرك ٠

وقبل أن نختم بحثنا ، لنقرأ مقاطع من قصيدة لشاعرة ناشئة اكتشفت عام ١٩٥٩ ، (كوليت بونييه) ونرى ما عندها من جديد ٠٠

ولدت كلمة هذا الصباح
واضحة
كقبلة طفل على الخد
كالخبز الطازج في القهوة
كحب مملوء بالبراهين
ولدت كلمة هذا الصباح
مشرقة
كثمرة تحت أسنان فتية
كقفزة ناجحة لجسم مراهق
في موجة مرتفعة وبيضاء
ولدت كلمة هذا الصباح
منتصبة
دون كذب
كعنق
كمدينة وعرة وحرة
ولدت كلمة هذا الصباح
مرنة ومتينة
في تمدد العالم
الذي يجعل المخاطرات والحظوظ والاحقاد عادلة
الذي يستند على رفض كونه غير مفيد
ولدت كلمة هذا الصباح
كلمة ما كانت جديدة ، ولكنها تنبعث عن التجارب
كلمة لها طيران القنبرة الحاد
في خصب الحقل الاصم

ان الشعر في العصر الحاضر لا يرمي الى الناحية الجمالية وحدها ٠٠ رفض الغناء ٠٠ رفض القيود ٠٠ رفض الفواصل ٠٠ وهكذا من رفض الى رفض ٠٠ « ينتهي الشعر بأن يكون جميلا جدا كالنثر » ٠

جيل في أجيال

بقلم: سليم بركات

يكاد يكون من المحال أن يقيم الباحث تفرقة فاصلة فصلا مطلقا بين أفكار يدعوها صوابا وأخرى يسميها خطأ اذ هو لن يلبث أن يكتشف بعد تحليل أية فكرة أو بعد استقصاء الصور التي تعيش بها في مفاهيم الناس وظنونهم ومسالكهم العملية · ان الصواب والخطأ مقداران ممتزجان يشتركان في تكوين كثرة الافكار التي تتداولها الالسنة والاقلام ، وأن العقل في معظم الحالات يبدأ بداية صائبة محكمة ثم يتورط الى الخطأ من توهم المشابهات بين أفكار غير متشابهة أو من جهل التكوين التفصيلي لفكرة ما بعد ادراكها في مجملها فيتأدى الى أن يستخرج منها ما لا تحتوي عليه أو يطبقها على ما يأباه منطقها ·

ولعله أن يكون من غرائب الحالات الفكرية أن كثيرا من الاخطاء التي يصل فسادها الى حد الزراية تكون في ايمان أصحابها مبنية على مقدمات تبلغ في حد ذاتها درجة البداهة ، وأن في عقول غالبية الناس ظنونا خرافية مقترنة في تصورهم بما يعادل مبادىء الفكر الاولى ·

وفي اعتقادي أن مشكلة التوجيه العقلي وتحديد سلطة الاجيال في تكييف مناحي التفكير والسلوك لدى الاجيال التالية لها بوسائل التعليم والتربية سواء منها مايعتمد أساسا له تقرير عناصر وطرقمعينة أو ما يعتمد تحريم عناصر سواها من المؤثرات العقلية والخلقية · هذه المشكلة تقع في مقدمة العقائد التي انطلق الناس فيها من أوضح البديهيات التي تفرضها غريزة النوع وفكرة الاجتماع الانساني والحضارة نفسها وتوصلوا على مدى التاريخ الى نتائج من الافكار ومن أساليب التوجيه ذاته كان فيها المعجم المؤلف من الكلمات الدالة على التربية والتوجيه والتعليم والتثقيف وأداء الواجب التاريخي معجما مثاليا في فن التضليل وتشويه معاني الالفاظ واطلاق الكلمات على نقائض معانيها ·

فكم قام أناس من البشر على مدى التاريخ بسلطة الهيمنة على عقول الجماعاتوحشدوا أعظمالجهود لمحاربة الجديد من كشوف العقل ولازهاق أرواح المفكرين والافكار وأخروا بذلك تقدم البشرية قليلا وكثيرا من القرون وكانوا في أغلب الظن لا يفعلون الا منطلقين من مبدأ واجب جيلهم في حماية حقل الحقيقة والخير للاجيال القادمة من بعدهم ·

وكم من قوى بذلت جهودها في مختلف البيئات والعصور لترعى عوامل التأخر والجهل والاستكانة للذل والعبودية وقاومت كل قلم دعا للنور وكل لسان هتف باليقظة وكانت هذه القوى في عقيدة رجالها مندفعة بحق الهداية وواجب الارشاد ·

وكم من مصلح وقائد فكر ذهبت صيحاته ودعواته في مهاب الرياح لان ضجيج المنكرين وصخب المعارضين المؤيدين بقوة المادة أو الغوغاء كانا غلافا منيعا يلتفحول كلماته ويخنقها ويحول بينها وبين الضمائر والعقول التي لو بلغتها الكلمات لكان لها وعي غير وعيها وحياة غير حياتها ·

وكم قضت طرق التعليم الفاسدة على مواهب كان يمكن أن تتألق وتشرق لو أتيحت لها فرص التوجيه الصحيح · وغذيت بالمادة العلمية الحية · وكم شقيت نفوس بتقاليد وأوهام غرستها البيئة الفاسدة والتربية المنحرفة وكان يمكن لها أن تسعد وتحيا الحياة الكريمة لو أسعفتها المقادير بتوجيه يقوم تفكيرها ويعلمها أن تفكر في مادة الواقع وتقصي كل ما تأتي به خرافات المجتمع أو خرافات الغرور · بل قل كم أبادت العقائد المتحجرة العقيمة من شعوب وقضت على أمم وجعلت أمما طاغية سواها تغزوها وتستعبدها وتتخذ للسيطرة عليها جيشا صغيرا من السلاح والجند وآخر ضخما من أفكار الامة المغلوبة وأوهامها التي تحبسها في اسار الجمود والتأخر والانحلال الداخلي ·

ولو تأملت حال العقول التي دفن التقليد شمسها والنفوس التي أحرق فساد التفكير مستقبلها وسعادتها والامم التي حبسها الجهل والخرافة في سجون التأخر والاستعمار لوجدت وراء كل هذه المآسي التي هي السطحالبارز المكشوف منحياة غالبيةالافراد والجماعات جهودا روحية عنيفة بذلتها الاجيال وكيفت بها فئاتها وأبناءها لجعلهم كما كانوا ، ولوجدت عقولا رسمت طرق

هذا التوجيه وفلسفات كاملة بينته وغرسته في أعماق النفوس ٠

وبعد ، فاذا كنا نعتقد أن ثمة نمطا انسانيا رفيعا من التوجيه والتربية يقتضيه حفظ الميراث الانساني العظيم ، وتتطلبه مسؤولية الاجيال لابقاء سير الحضارة والتقدم مستمرا في تطوره وانطلاقه نحو أهدافه ، ولوقاية الاجيال القادمة من الانتكاسات المريعة نحو عصور الهمجية والبدائية الاولى ٠ فيجب أن نقوم بخطوة أساسية وعلى أكبر قدر من الخطورة في هذه السبيل ، هذه الخطوة هي تصحيح مفهوم التوجيه وحمايته من الغموض والانحراف حتى تتجه جهود التربية في كل مجالاتها لتحقيقه في صورته الصحيحة ومستواه النافع وتحول دون الاعمال الشاذة التي تتناقض كل التناقض مع أهداف الانسانية العليا وتتعارض مع مسؤوليات الاجيال لحفظ الحضارة وتقدمها ولا تناسب الا مصلحة أعداء الفكر والحرية والسعادة البشرية ٠

لا بد من حماية فكرة التوجيه الصحيحة من عبث الذين ينتهزون فرص ابهام الافكار وتعقدها لينتزعوا منها دلالات ومناحي تبرر جرائمهم وتكسبها صفة الشرعية وتخلع عليها رداء الاصلاح والمنفعة ٠

وهذا الايضاح أو التصحيح حول فكرة التوجيه البشري أو حول أية فكرة انسانية أخرى يجب أن ينظر له على أنه أكثر الاشياء أهمية وضرورة اذ هو الضمان الوحيد لجعل هذه الافكار عنصرا نافعا خلاقا في حياة البشر لا أداة للرجعية والفساد كما تنقلب عندما يتولاها المضللون الكافرون بحق الانسان وكرامته ومستقبله أو عندما يتولاها الجهال البسطاء فينشئون القيم الفاسدة التي يفرضونها على من حولهم بأساليب أعظم منها فسادا ٠

فلا ريب أن عمل كل جيل معاصر في تربية جيل جديد ، انما يقوم على أساس تقديم الخبرات التي ورثها أو التي حصل عليها الى الجيل الجديد لينتفع بها كما يريد وكما يمكن له وليحاول استخدامها بشكل فعال نافع لبناء حياة جديدة أرقى من حياة الجيل السابق وأقرب الى الكمال والسعادة والعدل ٠

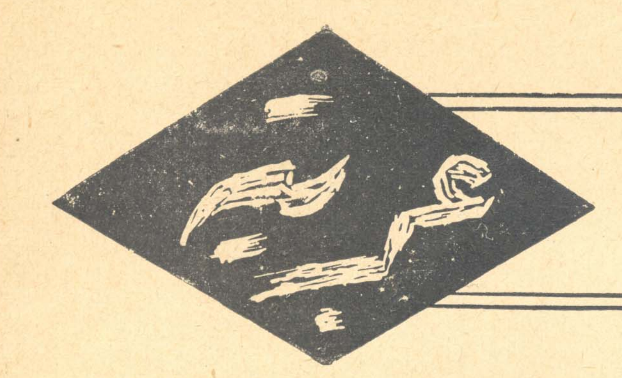
أما اذا فهم الجيل المعاصر أن عمله في تربية الجيل الجديد يعني فرض صورته عليه وضمان القضاء على فرص الابتكار والتجريد لدى أبنائه وغرس الكفران بحقه في أن يكون أبناؤه أحرارا في تفكيرهم وفي رسم مناهج حياتهم وثقافتهم أو اذا اعتقد أن ما لديه من أفكار وحقائق ومبادىء هو ختام ما يمكن لعقول الناس أن تعرفه أو تصل اليه واجتهد لمنع كل عقل قادم من تجديد المحاولة والتفنن في وجوه العمل والجهد ورسم خطط التربية والتوجيه على أساس رغبة راسخة في تجميد الحياة الانسانية الى الابد على شكل يتصوره ويحييه في أذهان مفكريه دون أن يكون هو نفسه قد وصل الى تحقيقه أو رسم معالمه على وجه الدقة ٠ فان عمل هذا الجيل يصبح عندئذ لاريبة منظمة في حق التاريخ وفي حق الاجيال القادمة التي سترفض بطبيعة الحال أغلال الاجيال السابقة وتكسر قيودها وتنظر الى أن القضاء على ثقافة السابقين وأفكارهم هو مظهر سام من مظاهر فخرها وفن رائع من فنون اجتهادها ٠

تحكم الجيل السالف في الجيل اللاحق ووضع كل الضمانات والقيود التي تحول دون اقدام أحد على تغيير القواعد القائمة أو فسخها واحلال الجديد محلها ٠ وبذل الجهود الخارقة في كافة السبل المادية والروحية لكي يكون كل انسان قادم نسخة عن الانسان المعاصر والماضي في خلقه وفي تفكيره وفي تقاليده ٠ ولكي يكون علم الآتين هو ما سطرته أيدي السابقين ومشاعرهم هي مشاعر الاولين وآفاقهم هي نفس الآفاق التي تطلع اليها الاسلاف ٠ كل ذلك كان طابع التطور الروحي في العصور السابقة وما يزال طابعه في كثير من بيئات العالم البشرية حتى اليوم وهو نفسه ما فرض أسلوب الثورة والعنف على حركة هذا التطور فلم يكن أهل فكرة أو صاحب نظرية ليبلغوا حد القدرة على الافصاح عن فكرتهم الا بخوض حرب ضروس تسيل فيها الدماء وتحرق الاجساد وتتجابه الجماعات الانسانية في ميادين القتال ولم يكن أهل تقليد أو مذهب ليسموا لسواهم بمشاركتهم في العلم والتعليم الا اذا أرغموا على ذلك ودون ارغامهم المآسي والآلام التي هي خلاصة تاريخ الفكر البشري ٠

لكن البشرية أخذت في العصور الاخيرة تبلغ من هذه الزاوية حدا يبشر بكثير من السلم والارتقاء في الحاضر والمستقبل على أساس أن طبيعة الايمان بالافكار واتخاذ المذاهب اتجهت في طريق الحرية الفكرية وأسلوب التقدير النسبي وان مما له دلالته العميقة في هذا المجال أن نلاحظ كيف أن العلم كلما تقدم في ميدان الكشف عن الحقيقة انتشر التفكير النسبي في تفسير شتى الظواهر الطبيعية فضلا عن الانسانية وساد اليقين بأن أساليب الفهم والتصور الاطلاقية كانت الرمز الاول لعصور الجهل والخرافة ٠

ان من الضروري أن تتحد التفرقة بين هذين النوعين من التوجيه كما تتحدر التفرقة بين هذين النوعين من التوجيه كما تتحدد التفرقة بين عمل المرشد المعلم الذي ينير السبيل أمامك ويحاول أن يجعلك ترى بعينيك وتدرك بعقلك ما ينبغي أن تراه وتدركه وبين عمل المستبد الاحمق الذي يعصب عينيك ويسيرك مغلول اليدين والقدمين حيث يشاء ممليا عليك مشاهداته وآرائه كيفما وأنى شاء في نفس الوقت الذي قد يكون طرح مشاهده وآرائه أول ما كان يمكن أن يهديك عقل متبصر اليه ٠

مناقشات



التقليد والحياة العربية

بقلم : صدقي اسماعيل

أثيرت في الوطن العربي في مطلع هذا القرن مشكلة القديم والجديد . وعلى الرغم من أنها اقتصرت على الباحثين والكتاب فقد كانت تنطوي على مضمون اجتماعي هام . لقد كانت الحياة العربية تتمخض عن صراع عميق الجذور بين بوادر اليقظة والنهضة ، وبين الجمود والاحتفاظ بالاوضاع الراهنة ، وكانت الحضارة الحديثة من أهم بواعث هذا الصراع ، فالذين دعوا الى الجديد كانوا يضعون نصب أعينهم تقدم الحياة الحديثة في البلاد الاخرى ويدعون الى مجاراة هذا التقدم والاخذ بأسبابه ، ومن ثم كانت الدعوة الى الجديد تحمل الكثير من المناداة بالتقليد في الوقت نفسه : أن نحاكي المجتمعات المتحضرة في مدنيتها وثقافتها ونقتبس أساليب حياتها ، وكان دعاة القديم يجدون في هذا التقليد شيئا من الخطر على الحياة العربية ويخشون ضياع التراث العربي والقيم الروحية والخلقية التي حمل بها رسالة انسانية الى العالم في الزمن الغابر . وهذا الحرص على القديم كان في الوقت نفسه دعوة الى تقليد الماضي باعتباره الصفحة المشرقة من تاريخ الامة ، والمرحلة التي أعطت أقوى النماذج الانسانية في شتى ميادين الحياة .

وعلى هذا النحو كان المحافظون والمجددون دعاة الى التقليد . وليس غريبا أن يكون التقليد شعارا في مرحلة اليقظة والتفتح . فقد بدأ انبثاق الحضارة في الغرب عندما توجهت الحياة الاوروبية الى تقليد الحضارة اليونانية القديمة ، وكانت الحضارة الحديثة في العصور الاخيرة ثمرة لتقليد النزعة « الانسانية » التي طوى بها « ايراسم » و « غاليله » و « كوبرنيك » صفحة القرون الوسطى . وما من مظهر ثقافي جديد عرفت الحضارة في تقدمها الا وكان أساسه تقليد الماضي .

ويلعب التقليد دورا أساسيا في الحياة العربية المعاصرة ، فثمة جوانب في تطور المجتمع العربي ، يبدو فيها التقليد نزعة الى التقدم والتحرر من الجمود ، ويبدو ذلك واضحا في المظاهر الاجتماعية العامة التي تقتدي فيها الجماهير بأساليب الحياة الحديثة بصورة عفوية كأنماط المعيشة وعادات الحياة اليومية ، واستخدام الوسائل الحديثة وما الى ذلك . وقد أخذ العرب بصورة أوضح فكرة الدولة المعاصرة بتقاليدها ونظمها عن البلاد المتقدمة ، وامتدت الى حياتهم عدوى الافكار والمذاهب والاتجاهات الادبية والفنية حتى أوشك مقياس التقدم في حياتنا ، أن يكون في الاسراع بمجاراة الآخرين .

ومهما تكن هذه المظاهر دليلا على تطور الحياة العربية ، ومسايرة العرب للتقدم، فانها ترجع الى التقليد الذي يمكن أن يحمل معه مساوىء كثيرة. فرجل الشارع في بلادنا يتساءل في كثير من الوعي ، عن مصير ما يسميه « التقاليد القديمة » المتوارثة ، وقد أخذ هذا التساؤل بالنسبة للمثقفين صيغة أخرى ، هي مدى تمثل العرب للحضارة الحديثة ، فزعموا أن مساوىء التقليد هي في تناول الحضارة بقشورها ومظاهرها دون الاكتراث بما تنطوي عليه من تجارب انسانية عميقة ، والتقدم الحقيقي هو انضاج المقدرة على الابتكار والابداع في المجتمع العربي . ولا سبيل الى ذلك الا في وقوف الافراد

على صعيد الوعي الانساني الذي أتاح لبناة الحضارة الحديثة أن يفجروا في مجتمعاتهم ينابيع الخلق والتجديد ٠

وهذه اليقظة يمكن أن تستمد الكثير من عناصرها من الماضي العربي ٠ فعلى الرغم من أن الحياة العربية المعاصرة ما تزال تحمل من التقاليد القديمة ما يثقل خطاها في تلمس طريق التقدم ، فان ذلك يرجع الى أن معظم هذه التقاليد تمثل مظاهر الماضي وقشوره أكثر مما تمثل الروح الانسانية المبدعة التي صنعته ، والتقليد بهذا المعنى ينطوي على مساوىء لا تقل خطرا عن مساوىء تقليد الآخرين ٠٠

غير أن ما يلفت النظر هو ارتباط اليقظة العربية الجديدة بنزعة التقليد ، مهما تكن ينابيعه وأشكاله ٠ وهي ظاهرة ترجع الى أن مظاهر التفتح في حياتنا الجديدة بدأت بالانتفاضات الجماهيرية ، وليس بظهور الافراد المتميزين ، وتجلت في الجماعات قبل أن يمهد لها هؤلاء الافراد التمهيد الكافي ٠ والواقع أن هذه اليقظة بدأت بالكفاح القومي من أجل التحرر ، وكان الوعي الوطني فيها نقطة الانطلاق ٠ وهذا الوعي هو في طبيعته نزعة جماعية ، وكل ما هو جماعي يجد سبيله في عدوى التقليد سواء كانت هذه العدوى محاولة لاحياء التقاليد العريقة الصالحة في حياة الامة ، أو كانت تأثرا بالحياة الاوربية الحديثة ٠ ومن ثم كانت المظاهر الاولى للتغير في الحياة العربية مرتبطة أشد الارتباط بنوع من القسر الاجتماعي خلافا لما يظن به الكثيرون أن هناك أفرادا حملوا الجديد، أو نخبة كافحت في سبيله ، فالكفاح القومي مثلا كان ثمرة لالحاح الجماهير العربية على مقاومة الاستعمار ٠

لقد كان الافراد أو النخبة تجسيدا للحوافز الكامنة في المجموع ٠ وقد كان القسر طابع الحياة العربية في معظم مراحل تاريخها ، ففي الجاهلية كانت الاعراف القبلية كل شيء ، وعلى الرغم من النماذج الفردية القوية التي عرفتها هذه الفترة من تاريخ الامة ، فقد كانت قوة الفرد تتمثل في مقدار ما يحمل من ملامح القبيلة ، وكانت القبيلة نفسها تستمد مكانتها من تعبيرها الاقوى عن خصائص الامة ٠ فكان الشعر مثلا وهو من أبلغ مظاهر التجديد والابتكار ، ينطوي على تقاليد صارمة حددت لشعراء الجاهلية ميادين الاداء ومواضيعه العامة ٠ وحين جاء الاسلام وضع للحياة العربية سننا ثابتة شعارها الروح الجماعية ، وقد بقي الفكر العربي في تساؤلاته الفلسفية حريصا أشد الحرص على هذه الروح ، طوال أجيال عدة ٠ فلم يعرف الوعي الفكري في تاريخ العرب شيئا من التجارب الفردية المحضة كتجارب المتصوفة مثلا، وقد اعتبرت من المظاهر الدخيلة على الحياة العربية ٠٠

وعلى الرغم من انتشار الثقافة في المراحل الحديثة من حياة العرب ، ونمو الشعور الذاتي ، فقد بقي الوجدان الجمعي مهيمنا على جميع مظاهر الابتكار الفردي ٠ فقد ظهرت في الاعوام الاخيرة دعوات كثيرة للتجديد في شتى ميادين الحياة ، وكان الافراد يمثلون الطليعة فيها ، ولكنهم كانوا في كل حين يستمدون أسباب دعوتهم من ارادة جماعية ترجع الى نزعة عامة أو فئة أو طائفة أو مجموعة معينة من بيئات المجتمع ٠ ولم تكن أية دعوة سياسية كانت أو أدبية أو فنية ، لتحمل طابع التفرد بل كان الافراد فيها أشبه بعديد من النبات يأتي به مناخ واحد ٠ ففي الادب مثلا نجد الاتجاهات قبل ان نجد الادباء المتميزين ، ولعل هذا يفسر غزارة المؤسسات الاجتماعية في هذا المجال وقلة المنتجين النوابغ ٠ واخطر ما في هذه الظاهرة ان الغرور والادعاء يسيطران غالبا على الافراد ، مفكرين أو أدباء أو فنانين، فلا يتبينون الايحاءات الخارجية في انتاجهم ، ويرون أنفسهم مبدعين ، وهم في الواقع مقلدون يجسدون مرحلة من مراحل الانسياق الاجتماعي في الاخذ عن الشعوب الاخرى ، أو التأثر الحضاري الذي تخضع له البيئات المتخلفة أمام الثقافات الراقية ٠ وخطر هذا الغرور انه يعرقل التحرر في جميع مستوياته ، لانه يرفض ان تكون الحقيقة قضية انسانية جديرة ٠

واذا كان ثمة معنى لهذه الهيمنة الاجتماعية ، فهو ان المرحلة التاريخية المعاصرة في الحياة العربية هي مرحلة تمهيد واعداد ، وليست مرحلة ابتكار وابداع ٠ وليس في ذلك ما يضير تقدم المجتمع العربي ، لان الروح الجماعية تروض الافراد في كل حين على تحمل مسؤولية الآخرين، والاندماج في المصير الواحد ٠ وتلك هي بوادر اليقظة ٠٠ غير انها تشترط التفتح الواعي لجميع الاتجاهات الثقافية وان تكون البيئة التي تمثلها مرحلة التقليد هذه ، ذات طابع انساني متحرر ، تستجيب لكل تمرد على الجمود والتعصب ، وترعى في نفوس الآخرين جميع النزعات الوجدانية الصادقة التي هي وحدها السبيل لتجديد التقاليد وابداع القيم ٠٠

قراءة رسالة لومومبا الاخيرة

بقلم : تشي يه

لومومبا يا بطل عصرنا

ان بطولة موتك تحرك العالم أجمع

ربما كان قليلا دم رجل واحد

الا انه يطهر أزهار الثورة الافريقية

★ ★ ★

ان شعب الكونغو غير مبالغ في طلباته

لكن الاعداء الاجانب والخونة يحكمونه

الا ان الفجر آت لافريقيا الجبارة

والعلم الذي سيلم شعث الشعب هو لومومبا

★ ★ ★

من المؤكد ان على الرجال ان يحاربوا عن كل انش من تربة الوطن

اذ من هو الذي يتنازل عن بلاده عن طيبة خاطر ؟

يتنازل عن بلاده عن طيبة خاطر ؟

ان جميع الاوهام هي سموم مميتة

انظر وشاهد رسالة لومومبا الاخيرة مكتوبة بالدم ٠

★ ★ ★

تحقيق في القتل في الكونغو امر موعود ،

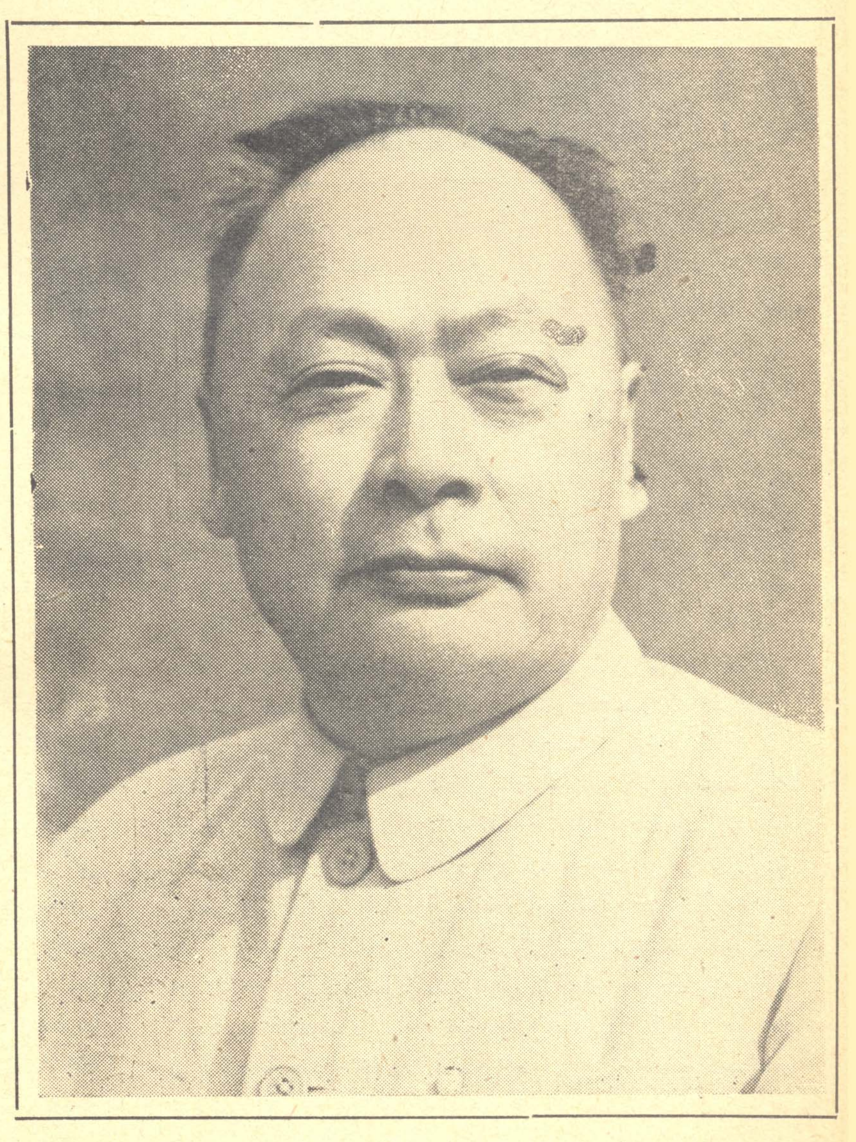
ان هؤلاء السادة يعرفون كيف يماطلون

انهم يحاولون ان يخدعوا العالم ، انهم يخدعون أنفسهم ٠

انها دلالة أكيدة ان ريح الغرب زائلة مع غروب شمسهم ٠

★ ★ ★

٤ آذار ١٩٦١



تشي ين

ووهان

مركز صناعي ومدينة جميلة

بقلم : لي ارنشونج

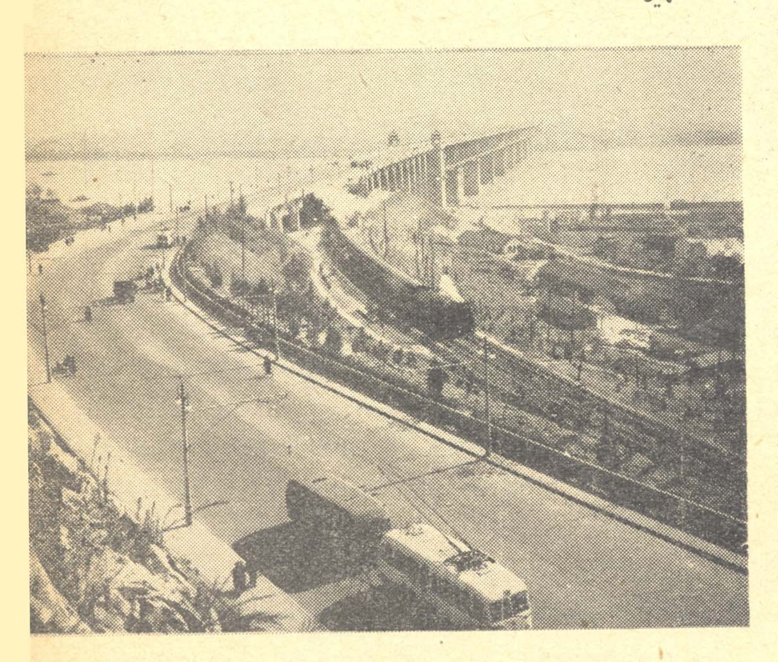
يلوح برج ساعة دائرة جمارك ووهان بجلال بجانب نهر ينج تسي بقمته التي تناطح السحاب وأنغامها الشجية التي تتردد في الجوار طولا وعرضا انه يقف منتصبا كدليل على تاريخ المدينة الحديث . ان مدينة ووهان هي احدى المدن التي كانت مهدا للثورة الصينية .. فالثورة التي اشتعلت في عام ١٩١١ والتي أودت بسلالة مانتشو بدأت هنا . ثم ان شيه يانج زعيم اضراب عمال سكة الحديد الذي بدأ في السابع من شهر شباط عام ١٩٢٣ والذي دفن أولا في مقبرة مهجورة في أسفل تلال هونج شان قد نقلت رفاته الآن الى سطح التل وأقيم تخليدا له نصب تذكاري شامخ يقابل عن بعد برج ساعة الجمارك في ووهان .

وعلى مسافة قريبة الى الجنوب من ضريح الشهيد الثوري شيه يانج يقوم معبد باوتونج البوذي ولدى تسلق التل بعد دخول المعبد نرى أشجارا وارفة الظلال والاعشاب الخضراء منتشرة في كل مكان . وعلى قمة التل يقوم معبد هونج سان الذي بني في القرن السابع للميلاد ومن على هذا المعبد يمكن الحصول على منظر شامل للمدينة الثلاثية - هان كاو وهان يانج ووتشانج - ويفصل نهر المائلهان بين مدينتي هان كاو وهان يانج بينما يمتد اليانج يمتد وكأنه نطاق فني طويل . وتخترق سكة حديد بكين كونتون المدينة الثلاثية من الشمال الى الجنوب وترى البواخر والقوارب تعمل جاهدة في الطرق صعودا ونزولا والقطارات والعربات الآلية تجوب الطرق في كل الاتجاهات بينما تغطي المرافىء وأرصفة السفن كلا جانبي نهر اليانج تسي . ولدى رؤية ضوضاء العمل يستعيد المرء الى ذاكرته شهرة المدينة بأنها « سرة الولايات التسع » كما هو مشهور عنها في جميع أنحاء الصين .

كانت «سرة الولايات التسع» تحت حكم الكومنتانغ الرجعي مركزا للاستعماريين لتكديس المواد الخام التي يجمعونها من جنوب أواسط الصين ومن هنا يجري شحنها بالسفن بعد تصنيفها وتوضيبها كما أنها كانت مركزا لتوزيع ما يستورده أولئك الاستعماريون من بضائع على المناطق الاخرى من البلاد . ومن دائرة جمارك ووهان وعلى طول مجرى اليانج تسي كانت توجد امتيازات هنكاو التي حصل عليها الاجانب من الصين عن طريق السلب . كانت « سرة الولايات التسع » اذن مركزا للتغلغل الاستعماري ، في الصين .

ومع انتصار ثورة الشعب الصيني عادت ووهان الى أيدي الشعب الصيني . فبنيت أرصفة جديدة لرسو السفن وكذلك محطات للقطارات ومنها ما لا يزال تحت البناء بينما تتزايد معدات التفريغ والتحميل الاوتوماتيكية يوما بعد يوم . وتلعب « سرة الولايات التسع » في هذه الايام دورا هاما ومتزايدا في البناء الوطني الصيني .

ومن الطبيعي أن تفكر هنا بجسر نهر يانج تسي الشهير .



منظر عام لجسر اليانج تسي

بدىء العمل في بناء جسر يانج تسي في ايلول عام ١٩٥٥ وقد استعمل في اقامة أعمدة الاساس له أحدث

الطرق الفنية وعندما بدىء بالعمل لاول مرة لم يكن للعمال أية معرفة بمعظم الآلات أو بتشغيلها ولذلك فلم يستطيعوا اتقان عمل الانابيب الضخمة ٠ ومع هذا فقد أظهروا ما يتميز به العمال الصينيون من مثابرة وروح لا تقبل الهزيمة ٠ وقد صرحوا « لا يوجد شيء في العالم لا يمكننا اتقانه ٠ سنبني جسر اليانج تسي بأيدينا » ٠

وفي اليوم الخامس عشر من تشرين الاول من عام ١٩٥٧ افتتح رسميا جسر يانج تسي البالغ طوله ١٦٧٠ مترا مع جزئه المتمم له وهو جسر تشيانجهان (الطريق العمومي عبر النهر الذي يبلغ طوله ٣٠٠ م) يصل هذا الجسر الجبار سكة حديد بكين هنكاو مع كانتون هنكاو ويجعل من المدن الثلاث أجزاء متممة لكل ٠ ان هذا لذو أهمية عظيمة لتبادل المواد بين شمال الصين وجنوبها وتطور الاقتصاد والثقافة في ووهان ٠

واذا ما ركزت نظرك على جسر يانج تسي من أعلى المعبد على تلال هونجسان يمكنك أن تدير وجهك قليلا الى اليمين فتجذب نظرك فسحة واسعة من الماء انها البحيرة الشرقية (تونجو) التي تأنقت وتطورت منذ نجاح ثورة الشعب الصيني في عام ١٩٤٩ ٠ ولكونها مركزا علميا ففيها أزهار مفتحة طيلة أيام السنة ٠ انها بحيرة بلورية المياه تزيد مساحتها عدة مرات على مساحة البحيرة الغربية الشهيرة في هانج تشاو وفيها كثير من البساتين المثمرة والغياض الكثيفة ٠ وبين الاشجار على سفح التل تقوم المصحات والفنادق واستراحات الشاي وقاعة تشو يوان التذكارية وصيوان الشعراء والمتحف وغيرها من الابنية ٠

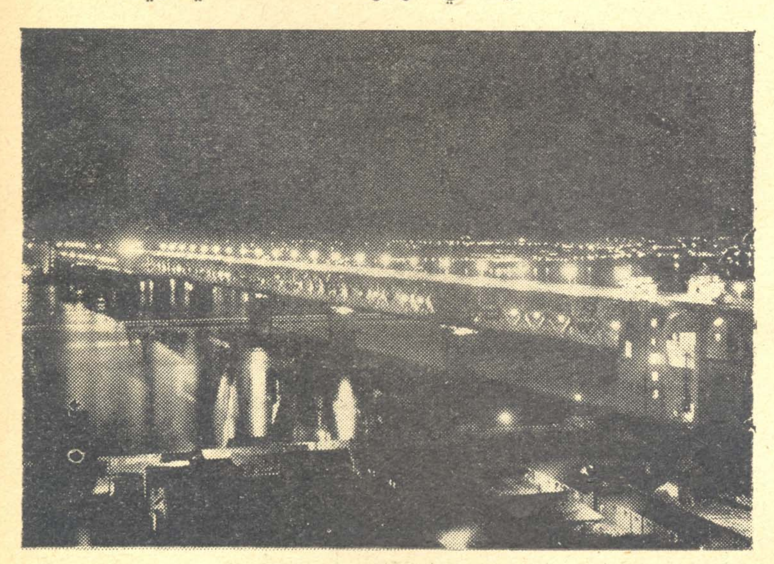
وتقوم جامعة ووهان على تل لوتشا على جانب البحيرة ٠ انها تواجه البحيرة من جهتين وتنتصب فوق التل ومن تحتها تمتد مدرجات من الاراضي الخصبة ٠ ان أقسام الهندسة والمساحة والرسم الشهيرة كلها تقع على الضفة الجنوبية للبحيرة ٠

كان مرتفع كوشان الواقع شمال شرقي البحيرة لاربع سنوات خلت، تغطيه الحشائش البرية والعليق أما اليوم فقد أصبح مكانا تقوم عليه مصانع الحديد والفولاذ في ووهان وهي أكبر مصانع من نوعها في أواسط الصين وعندما يتم العمل فيها ستنتج ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ طن من الفولاذ كل سنة ٠

واذا كنت في هسنج ين كي (صيوان الشعراء) ونظرت الى خارج ظهرت أمامك البحيرة كاملة تمتد تحت قدميك ٠ ففي الصباح الباكر تكون مياه البحيرة بلورية وصافية وسطحها كالمرآة وفي وسطها ترى أعدادا من قوارب الصيد تمخر الماء بينما تشاهد أسرابا من البط البري تسبح نافرة بعيدا عنها ٠ وتخرج جماعات السمك لترحب بشروق الشمس ٠ واذا ما حدقت النظر في هذا المشهد التصويري فمن الممكن أن ترى الاسماك تسبح في الغيوم وطيور اللقلق تطير تحت الماء ٠ والتل الواقع وراء البحيرة هو تل موشان حيث توجد المصحات وحديقة لابحاث علم النبات ٠

والى الجهة الغربية من صيوان الشعراء وبعد اختراق أحراش كثيفة يصل المرء الى مجموعة من العمارات الضخمة ذات مداخن ترتفع الى عنان السماء ٠ انها مصانع ووهان للآلات الثقيلة الحديثة البناء ٠

واذا ما أخذتك سيارة على الطريق العمومي فانك تشاهد على طريق لوتشاشان مصنع المراجل ومصنع المنافيخ ومعمل الآلات الكهربائية ومعمل الطربينات البخارية ومصنع كراسي محور البيل ، كلها حول كوانشان ٠ ان كاتين هي مركز الصناعة الكيماوية



منظر ليلي للنهر في المدينة

ان مصنع القطن الحكومي رقم ٢ ومصنع النسيج الآلي قد بنيت بالقرب من كوشان ٠ وكذلك فان أعدادا كبيرة من المؤسسات الهندسية قد برزت الى الوجود في هان يانج ٠

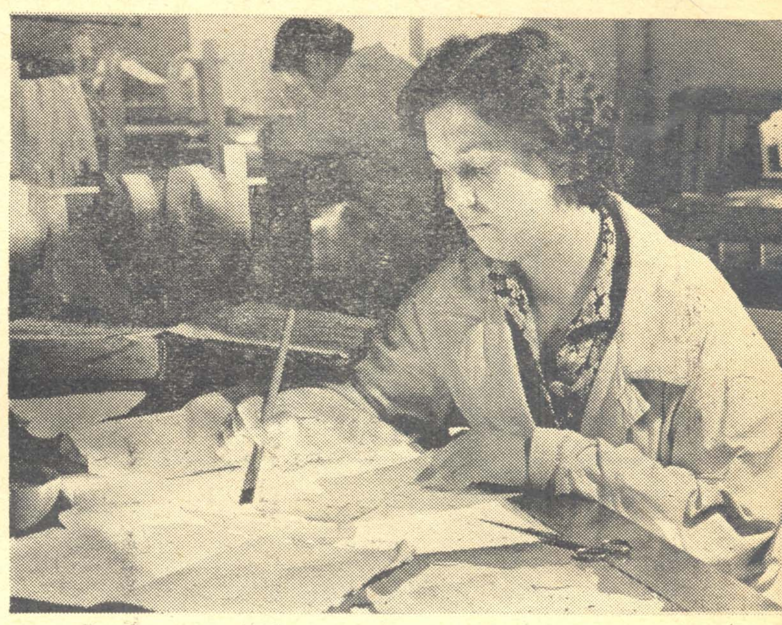
وعندما تأخذ لك قسطا من الراحة على جسر يانج تسي فانك ترى بحيرة القمر حيث توجد كوتشن تاي (شرفة الصلصال القديمة) ٠ والى الشرق من جسر يانج تسي يقوم جناح تشنج تشوان عند أسفل تل السلحفاة وعندها سيتولاك العجب وتتساءل أي نوع من المدن ووهان هذه ؟

وتطن أجراس ساعة الجمرك في ووهان ثانية وكأنها تجيب على تساؤلك بقولها : « ان ووهان ليست فقط مهدا للثورة أو مركزا للمواصلات بل انها أيضا مدينة جميلة ومركز صناعي قوي للصين الجديدة الاشتراكية » ٠

مكتبة للجمهور الكبير ..

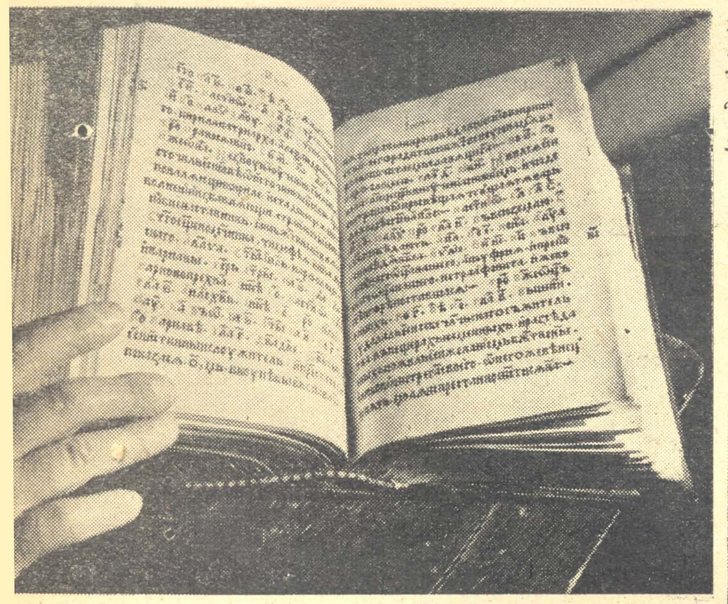
بناء ضخم جدا ، ومن أسلوب معماري رزين ومناسب للغاية التي أنشىء من أجلها ، يقوم في ملء ساحة موسكو : وهو المكتبة الوطنية « لينين » ، للاتحاد السوفياتي .

الا أن جزءا منها ما يزال يشغله عمار قديم ، هو فيلا جميلة ، كانت شيدت حوالي عام ١٧٨٠ حسب مشروع المهندس الروسي الكبير : ب. باجينوف . وفي عام ١٨٩٣ ، وعام ١٨٩٧ ، عمل لينين في صالة القراءة . وفيها أيضا درس ساحر اللفظ ليو تولستوي المخطوطات ليحصل على مواد لقصته « الحرب ، والسلم » كما كان باستطاعتنا أيضا أن نرى فيها فيدور ديستويفسكي ، والعالم الشهير ديمتري مندلييف وعددا من الشخصيات العلمية ، والثقافية ..



احدى الموظفات تحقق في كتاب نادر

قم بجولة في صالة الكتب النادرة ، وسترى المجموعة الثمينة فيها ، فسترى ، في الخزائن ، الاوراق المصغرة من « شعر » ليرمونتوف ، الذي نشر في حياة المؤلف نفسه ، وأحد أوائل نسخ « الاخوات الثلاث » لتشيكوف ، وأعمال ليو تولستوي (وبعضها يحمل آثار يده) ، والنسخ الاولى لاعمال ماكسيم غوركي ، لسان حال الثورة ، وستشعر بأنك اكتسحت بشعور يشبه شعور المكتشف ، وأنك بحضور ولادة مواهب كبيرة جدا . وسوف يطلعونك على النسخة الاوربية الشهيرة « قانون الطب » لابن سينا ، وقد نشر عام ١٥٩٣ في روما . وستعرف أن المكتبة تحوي على مؤلفات نادرة لارسطو ، وأفلاطون ، وطبعات ثمينة ، هي الاولى لاعمال جيوردانو برينو ، وكوبريتكوس ، ونيوتن ، وداروين .



قسم الكتب النادرة ـ كتاب وضع سنة ١٤٩١

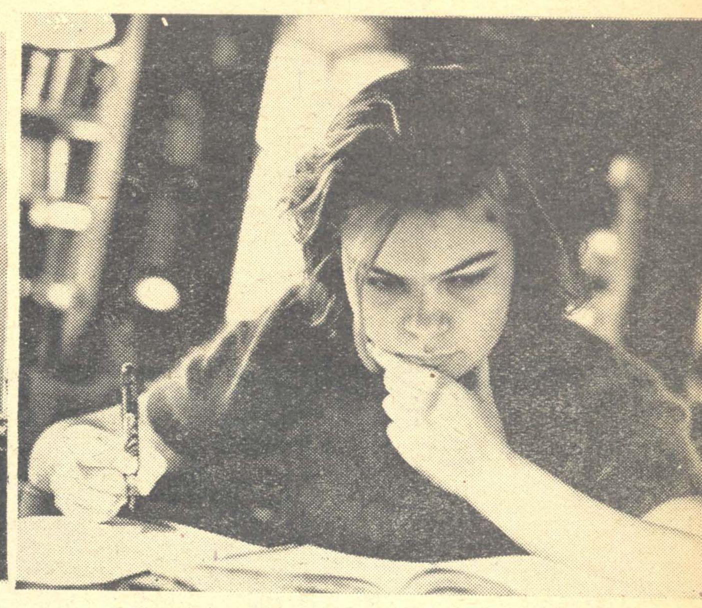
ويمكن للمرء أن يجد كتبا قديمة ذات أهمية ، في الثقافات الروسية ، والاوروبية ، والشرقية ، ونماذج فخمة لمخططات طوبوغرافية ، وفنية ..

والثروات الاخرى في المكتبة ، من كتب، ومخطوطات هي متوفرة بصورة واسعة . وبفضل خدمات الميكروفوتوغرافيا ، التصوير الدقيق، فبوسعك الحصول على نسخ لافلام عن أعمال الصحافة ، والمخطوطات التي تغص بها المكتبة .

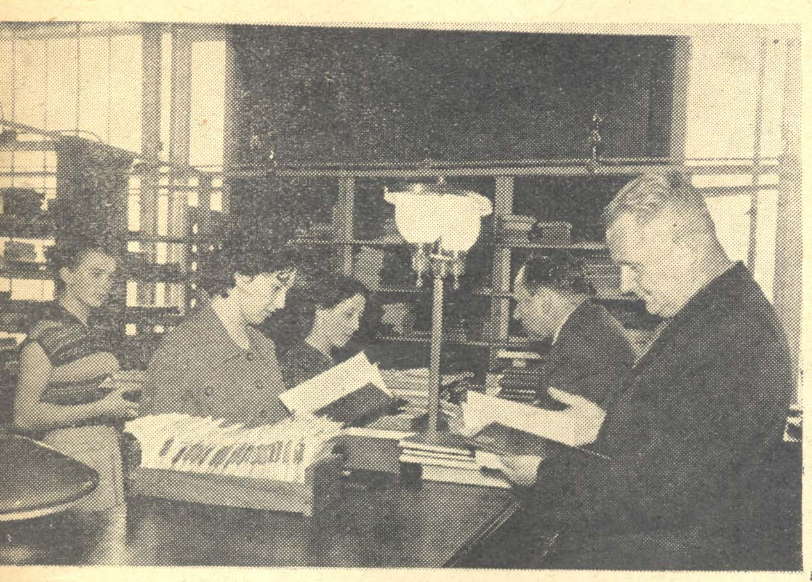
المكتبة والشرق :

ويعود قسم هام ، بين ملايين المجلدات في المكتبة ، الى أدب اللغات الشرقية . ويمكن للمرء أن يجد أعمالا في لغات جد متنوعة : عربية ، وبنغالية ، وبرمانية ، وصينية ، وسانسكريتية ، ونيبالية ، وأوردية ،

وهندوكية ، ويابانية وغير ذلك ٠٠ ان أغنى المجموعات هي في اللغات الصينية ، واليابانية ، ولنضف أن المجموعات الصينية ، واليابانية، والعربية ، والفارسية،



في صالة المطالعة لمكتبة لينين



في قاعة توزيع الكتب في مكتبة لينين

والسانسكريتية تحوي طبعات قديمة ، ومخطوطات قديمة أيضا ٠٠

وفي صالة القراءة في قسم أدب الشرق الاجنبي ، يمكن للمرء أن يصادف علماء، وطلاب من جامعة الصداقة وطلاب مستشرقين من موسكو ، والاتحاد السوفياتي ٠

وتشترك المكتبة في جرائد ومجلات أكثر من ٦٠ بلدا عربيا ، وتتلقى ، الى جانب ذلك ، حتى ألف كتاب عربي في العام ٠ ان الادب العربي يحتل مكانا هاما في أساس تكوين الشرق ٠

تبادل صداقي :

وصلت ذات يوم رسالة من الجزائر البعيدة الى المكتبة ، ترجو فيها مكتبة جامعة الجزائر ارسال نسخة مصورة لها عن كتاب مكتوب عام ١٧٨٧ من السائح الروسي م٠ كوكوفتسيف بعد تطوافه في افريقيا ٠ وقد أرسلت المكتبة نسخة مصورة عنه ٠٠ وكذلك للمكتبة صلات مع معهد العلوم السياسية ، في جامعة الجزائر ، ومع المعهد الزراعي في الجزائر ، الذي يهتم بمجلتنا عن العلوم الزراعية ، ومع معهد باستور الذي نوافيه بصورة منتظمة بمجلة : ميكروبيولوجيا ٠ وفي المقابل نتلقى مطبوعات علمية جزائرية ٠٠

وكذلك لنا صلات مع كلية الآداب في جامعة الرباط ، والمعهد الافريقي في دكار ، ولبنان ، والعراق ٠ كما أن تبادل الكتب مع المكتبة الوطنية في القاهرة بدأ عام ١٩٥٨ ، كما أنه منذ عام ١٩٥٨ تبادلنا الكتب مع المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومع الجامعة السورية في دمشق أيضا ٠٠

وان المكتبة الى جانب ذلك تتبادل الكتب ، والمطبوعات مع ٢٤٥٧ مؤسسة من ٧٦ بلدا ، (الولايات المتحدة الامريكية ، والنمسا ، وانكلترا ، والهند ، وايطاليا ، وفرنسا ، وكندا ، والمانيا الاتحادية ، واوستراليا ، واليابان ، والبلاد السكندنافية وغيرها)٠

واذا أضفنا الى ذلك كله أن ٨٦٠ بعثة قد زارت المكتبة في العام الماضي ، فتتكون عندنا فكرة عن ضخامة العلاقات الدولية ، لمكتبة لينين ، وعن الكرم الذي به تضع ثرواتها في متناول أيدي المثقفين ، والعلماء من الاقطار المختلفة ٠٠

ل٠ ايفانوفا



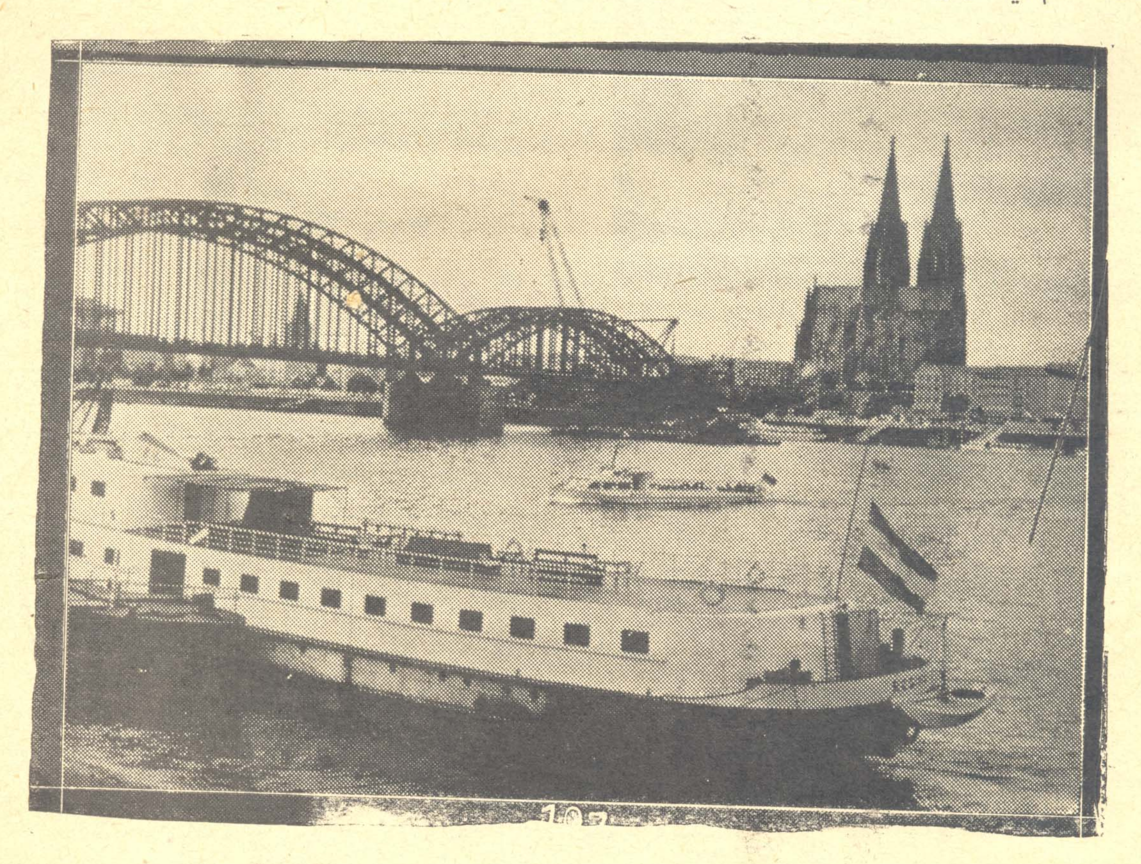
كولن ـ مدينة المعارض الدولية الفنية

ان مدينة كولن هي أكبر حاضرة على نهر الراين ، وكما انها من أشهر وأعرق وأهم بلدان جمهورية المانيا الاتحادية . وقد شيدت هذه المدينة قبل (٢٠٠٠) سنة من قبل الرومان ، وابنيتها الرومانية الكثيرة هي الدليل الواضح على منشأها الروماني
التي هي أقوى بناء كنائسي على الاراضي الالمانية ، الا لتعبير صادق عن تطور عهدها القديم .

وقد تطورت كولن في عهدنا الحديث الى مركز اقتصادي هام ، يشع الى ما حوله من المناطق ، الا ان معارض كولن الدولية الفنية ، والتي تقام في قاعات العرض الكبيرة والقريبة جدا من ضفاف الراين انهى معروفة في جميع أنحاء العالم .

وقد تم في كولن التحقق من ان ما تعرضه الصناعات أصبح ذات محيط متسع حتى لم يعد معه بالامكان عرض تلك المصنوعات المنتجة الا على مقياس بسيط ، ولذلك فقد قرر ان لا يعرض في معرض عام جزء من كثير بل تقريبا اظهار كل ما يمكن عرضه من فرع صناعي واحد ، ولهذا فقد أصبحت قوة الجذب لاقامة المعارض من هذا النوع كبيرة ، وتبعا لذلك كله فقد تطورت معارض كولن ، وأصبحت من أهمها وأعظمها في أوروبا .

وفي كانون الثاني (يناير) في نفس الوقت أقيم اثنان من هذه المعارض الفنية ، وقد كان الاول هو المعرض الدولي الفني للادوات الرياضية ومزودات ضرب الخيام ثم أثاث الحدائق « س . ب . و . ج . أ » . وقد مثلت في هذا المعرض ٣٠٠ شركة من ١٩ دولة



منها اليابان ، وهونج كونج والباكستان ، وأما في الثاني فقد عرضت أدوات الالعاب للاطفال ٠

وفي فبراير (شباط) من نفس السنة أقيم العرض الدولي للاثاث ، وقد ظهرت فيه ٥٧٥ شركة المانية و ٢٨٥ شركة أجنبية ، وهذا العرض هو مركز لاقامة اقتصاد الاثاث الدولي ٠

أما معرض الربيع الدولي فيقام في ١١ ويدوم حتى ١٤ من مارس لعام ١٩٦٢ وسيعرض على أرض المعرض في كولن ١٥٠٠ مشترك من ١٥ دولة سيعرضون كل ما هو ضروري لمحتويات البيت ومنها آلات البيت ، وأدوات الطبخ ، وحاجيات بيتية أخرى مثل آلات التدفئة والطبخ ، وآلات الغسل ، والثلاجات وأدوات للقطع وكذلك السكاكر (الاقفال) ، وقطع أخرى متنوعة ٠

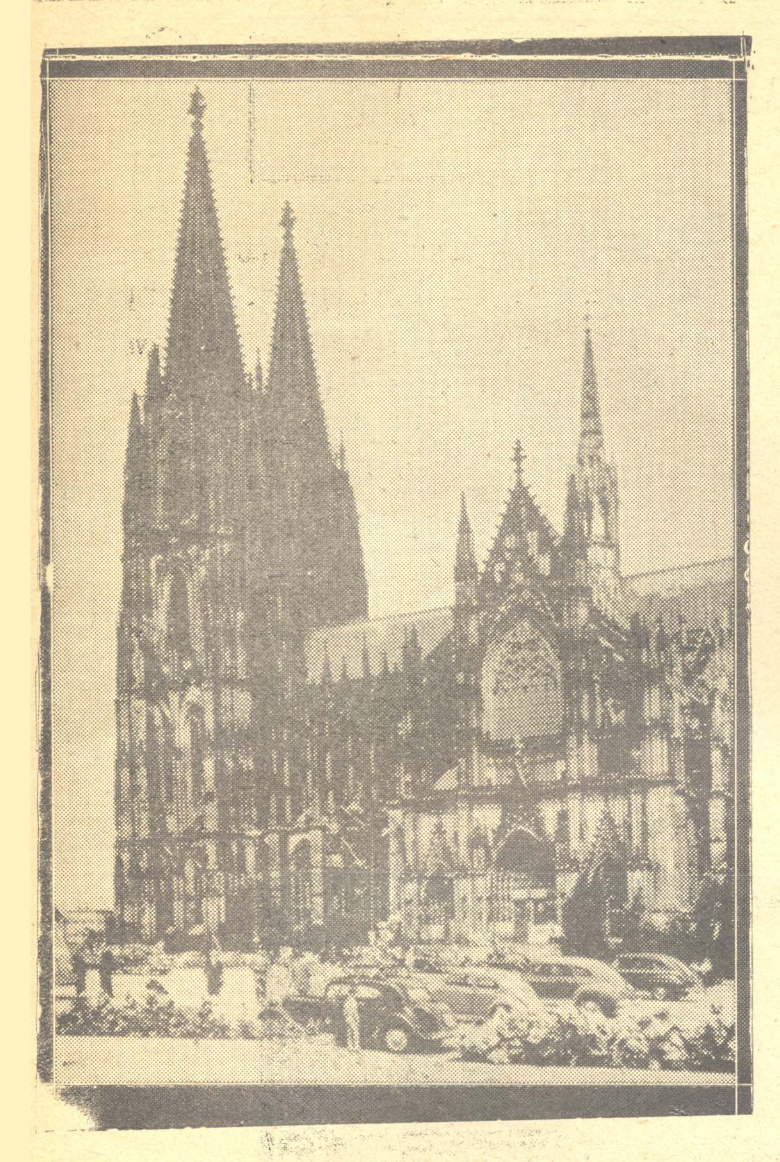
ولهذا فانه من المتوقع ان يزور هذا المعرض ٥٠٠٠٠ من المشترين الاخصائين من جميع أنحاء العالم ٠

وللمعرض هذا قيمة كبيرة اذ انه يقام كمعرض خريف من ٩ حتى ١١ من سبتمبر (ايلول) لعام ١٩٦٠ ، ويخص بأثاث البيت وكذلك كمعرض للادوات الحديدية ٠

ويتوقع بمناسبة زي الرجال الدولي الذي يتم الاحتفال به من ٢٨ ويمتد حتى ٣٠ من آب (أغسطس) لعام ١٩٦٢ ، اشتراك ٣٥٠ عارضا ، وقد تطور هذا المعرض في خلال سنوات قليلة الى سوق دولي معترف به لمصانع ملابس الرجال وكذلك الاطفال ٠

وأما المعرض العالمي للتصوير وفن السينما والذي يقام من ٢٤ من أيلول (سبتمبر) حتى ٢ من تشرين الاول (أكتوبر) فقد تطور الى التصوير الفني ٠ وهذا المعرض مرتبط باعداد كبيرة من مناظر تصويرية ، والتي تتعدى الفن الى القيم الثقافية التصويرية ٠

وفي هذا المعرض ـ معرض التصوير الفني ٠



ويمكننا القول ان ما من شركة المانية او عالمية ، الا وتشترك في هذا المعرض بقياس واف عن منتجاتها ٠

كذلك كما هو في المعارض الفرعية الاخرى ، فان هذه الامكانية لا تسهل فقط احياء الارتباط بين التجارة الالمانية فحسب ، بل وتحيي كذلك اهتمام البلاد الاوروبية وبلاد ما وراء البحار ٠





غروب في الفجر

مجموعة قصص لوليد مدفعي

نقد عدنان ابن ذريل

يمر أدبنا المعاصر اليوم ، بمرحلة دقيقة ، شيقة ، وشاقة من مراحل تطوره ، هي مرحلة الاصالة التي له،في ابداعه ، ومخططاته ، في موضوعه ، واسلوبه ٠٠ يكتشف فيها نفسه ، ويفصح عن هويته ، ويطبع بطابعه حياة التفنن ، والاذواق ٠٠

ويشاء العصر الحاضر أن تقترن هذه المرحلة الحالية ، بالثورة السياسية ، والاجتماعية الحديثة ، التي تعيشها البلاد اليوم ، من أقصاها الى أقصاها ٠٠ ويشاء الابداع الادبي ، وظروفه المختلفة ، من نفسية ، واسلوبية أن يحمل الادب طابع هذه الثورة المباركة ، الميمونة ، فيصورها ، وينقل أخبارها ، ويرنم انتصاراتها، وأمجادها ٠٠ ثم تشاء ظروف التفنن أيضا ، أن تمنح النثر ، الثقة ٠٠ والاهتمام ٠٠ ثقة القارىء ، والمتذوق ، واهتمام الدارس ، والناقد ٠٠ فيزدهر النثر ، فنونه وأساليبه ، ويجد في التعبير عن حيوات العصر الحاضر ، يسد بذلك متطلبات الحضارة والفن ٠٠

وقد حققت القصة اليوم ، الكثير من امكانيات الابداع النثري ، حتى غدت مرتاد الادباء ، والمصلحين ، يعالجون بواسطتها مشاكل المجتمع ، ويرسمون جوانبه، والقصة القصيرة فيها على الخصوص اليوم أسلوب مفضل مأثور ، يطرقه المبدعون ، ويؤثرون مرونته ، ويستوعبون به المقتضيات الحديثة ٠٠

ومن قصاصينا الموهوبين المبدعين ، الاستاذ القاص وليد مدفعي ٠٠ انه في طليعة الشباب المنتج ، المؤمن بأدبه ، ورسالته ، العامل على خدمة الفن القصصي ، بشتى أساليبه الطويلة ، منها أو القصيرة ٠٠ أن أدبه يتميز بالواقعية النيرة ، البصيرة ، والتحليل الدقيق ، المعبر ، كما يتميز بمسحة تفاؤل آسرة ، قل ان نجد لها مثيلا في أدبنا المعاصر ٠٠ تفاؤل يصبغ هذه القصص بصبغات ساخرة تارة ، ضاحكة تارة أخرى ٠٠ انتقادية تارة ، متحاملة تارة أخرى ٠٠

ان مجموعة غروب مع الفجر ، القصصية الجديدة، صورة للاديب القاص وليد مدفعي ، سواء في تفاؤلها ، أو انتقادها ، أو صدقها ، أو سخريتها ٠٠ أنها قصص واقعية من الحياة ، غرفها من تجاربه ، وتجارب المجتمع حوله ٠٠ بعضها قصص قصيرة ، والبعض الآخر قصص مطولة ٠٠

ولقد حرص المؤلف أن يجمع بين دفتي مجموعته نماذج من قصص مختلفة ، وطنية ، وقومية ، واجتماعية، وتحليلية ، وانتقادية ، وساخرة ، ففعل ٠٠ وجاءت

المجموعة باقة من قصص مختلفة فيما بينها في الموضوع ، والصبغات ، الا أنهـا كل يجمعها التفنن ، المتفـائل ، النير ، الذي أثـر عن المؤلف ، وشياته في التصوير ، والتعبير ٠٠

حقا ان المسحة التفاؤلية الضاحكة ، طابـع تميز لهذه القصص المختلفة ٠٠ فسواء عالجت الجانب المضيء من الحيـاة ، او انتقـدت ، أو سـخرت ٠٠ فالمسحـة التفاؤلية وراء التراكيب ، والعبارات ، والالفاظ ، تملأ القصص حياة ، وأملا وثقة ٠٠

لقد طربت جدا للموضوعات الوطنية ، والقوميـة التي عالجها المؤلف في قصصه : غروب في الفجر ، وهي في فراق حزين مؤثر ، والساعة لا تدق في بور سعيد ، وهي في بطولة جول جمـال ، ونظرات حائرة ، وهي في صداقة الثورة ، والجهاد ٠٠ فقد وفر لها المؤلف الحوادث البسيطة ، المعبرة ، وتفنن في عرضها ، وسردها ٠٠

وثمـة بـين القصص قصص تحليلية ، تقوم على التحليل فقط ٠٠ مثل كل عام وانتم بخير ، وهي صورة نفسية طريفة ، لحالـة طفل ، فقير ، مشرد في عيد ٠٠ وأمي ٠٠ وهي صورة نفسية موفقة ، لايثار الوطن على الهجرة ، والمهجر ٠٠

وثمـة أيضا قصص أخرى يقترن التحليل فيهـا بالسرد ، مثل النبع ، وهي صورة اجتماعية ، ترسمية لحياة القرية ، والمكدين المتورين فيها ٠٠ أو الخمر في الدم وهي صورة اجتماعية ، وانتقاديـة في الجهالـة ، والفسوق ٠٠ أو قدمان حافيتان ، وهي صورة حياتية في النبوغ عند التلاميذ الفقراء ٠٠ او الابواب الثرثارة ، وهي انتقاد سافر للمجتمع ، والحياة ٠٠

لقد عالج القاص وليد هذه الموضوعات بطلاقة ، وجرأة ، وعبر عنها بسلاسة ، وفن ٠٠ وقد تجلى الصدق في فنه القصصي انه كثيرا ما تعدى نطاق القصة القصيرة، أما القصة المطولة ، او التحليل ، الى الوصف ، والسرد ٠٠ وذلك ليفي القصص حقها من التفنن ، والايحاء ٠٠

وكثيرا مـا يمزج القاص وليـد السرد بالانتقاد ، والانتقاد ، بالسخرية ٠٠ وكثيرا ما تضطره المكاشفة ، والصدق ، الى تعدي حدود اللياقة في السرد ، او الوصف او التحليل أيضا ٠٠ مثل ذلـك قصتـان في المجموعـة فاحشتان ، لا أظن أن البراعة ، أو الفن فيهما ، يغفران لما فيهما من فحش ، ومجون ٠٠ ان الجانب المظلم من الحياة ، يا صديقي وليد لم يكن في يوم من الايام مادة أدب رفيع ، سام ، وخالد ٠٠ أنه جانب حزين ، ويؤسف له حقا ، وعلى الاديب معالجته بدقة ، وحيطة ٠٠ فينبه الناس له ، ويرتفع بهم عنه ٠٠ لا أن يزينه لهم،ويرغبهم فيه ٠٠

بقيت ملاحظـات على الاسلـوب ، السبك نقي ، سلس ، مشرق ، ينسجم مـع الموضوعات القويـة ، في المجموعة ٠٠ ولكن ظهرت في كثير من القصص تراكيب فاسدة ، وتعابير هي أقرب الى العامية ، ان لم تكن عامية ٠٠ ولعل مردها الواقعية ، أو السخرية من الاوضاع ٠٠

وقـد لا حظت أيضا استعمال الحوار العامي ، أو التراكيب العامية في كثير من القصص ٠٠ وذلـك أيضا مستهجن ، وحبذا لـو تـرفع المؤلف عنه ، وحافظ على نقاوة الاسلوب ، وسلاسة السبك ٠٠ والله الموفق ٠٠

عدنان بن ذريل

مع ديوان « قبل لا تنتهي » لكمال فوزي الشرابي

شعر كمال بساط، في قوة ٠٠ ووضوح في عمق ٠٠ وأغنيات علمية ٠٠
على نقادنا ان يكونوا منصفين والا يكونوا مغرضين آثمين ٠٠

بقلم عبد الله الشيتي

من الناس ، من يسوؤهم أن نعمل لانهم لا يعملون، ولا يحبون العمل لانفسهم ولا لغيرهم في أي حقول العطاء، ومن الناس من اذا عملت وأبدعت في عملك على درب العطاء ، حيوك وأثنوا عليك بما تستحق ، لانهم يعملون ويهمهم أن يعمل الناس ٠٠

٠٠ ونحن معشر الذين نحب أن نعمل ، ويعمل الآخرون ، قد ابتلتنا المصيبة « اجارنا الله » بعينة شاذة من النقاد السلبيين لا يفتأ الادب نثره وشعره يستغيث منهم بالمنصفين من القراء والمتذوقين ويستجير يائسا ٠٠ أسوق هـذا في أعقاب الحملة الظالمـة التي شنها أحد النقاد في دمشق على شاعر معطاء بمناسبة صدور ديوان حديث له ، فكان من الغرابة المضحكة ان ترك الناقـد ديوان الشعر ، وسلط قلمه ولسانه على الشاعر ٠٠

انه لمن الافتئات على العمل الفني وأد الموضوعية ،

وذبحها على عتبة الغرض الشخصي ، تشفيا ومكابرة على الحقيقة في رابعة النهار ..

.. فاذا تساءل المتسائلون عن سبب ظهور هذا الناقد (الطرزاني) واضرابه في ساح الادب .. نجد أن الازمة الضيقة في الساح تبرز أمثاله حين يغيب الفحول وتنعدم الاصالة وتتلاشى القيم ، وتستتر البغاث (١) بأرضنا ..

هذا عن النقد الذي كان تجريحا من الناقد « بالشاعر كمال فوزي الشرابي » وأما عن ديوانه « قبل لا تنتهي » فيطيب لنا أن نتذكر المثل الدارج ونحن نلمس قسوة النقد الشخصي ازاءه :

« مزمار الحي لا يطرب » .

فلو كان هذا المزمار من غير هذا الحي لانزله الناقد منزلة القداسة ولقال : لمثله يجب الركوع والسجود .

« قبل لا تنتهي » ديوان شعر رحب كالحديقة الفينانة ، الظليلة ، معلقة في تلاع الطبيعة ، ممرعة ، سكب الربيع عليها فوح شذاه ، وألبسها الخيال فن الصورة ، وروعة الفكرة ، واصالة المعنى ، لبوسات شتى من جمال الكون ، والفن ، والحياة .

كن جميلا تر الوجود جميلا ..

كذلك حال لسان شاعرنا الشرابي وما على لسانه غير قلب أضناه الشوق وبعثره الحنين حبات من لآلىء مليسة يضفرها أكليل شعر في جيد الانسانية .

فلم لا يكون كمال فوزي متفائلا بساما مقبلا على الحياة ..

ولم يريده ناقدنا ذاك متشائما منهزما معقدا ومدبرا عن الحياة ؟

انه لظلم حين ينتطع النقد الموتور للنتاج الاصيل من غير ما رحمة ولا ترو ولا عدل .

« قبل لا تنتهي » أغنية مموسقة حنون تترنم بها الشفاه الظمأى عبر رحلة العمر الى ما لا نهاية .. واني أحب لنفسي ترانيم الشعر وتسابيحه ولا أحب فلسفته وفذلكته وقد قيل في ذلك .

اذا الشعر لم يهزك عند سماعه
فليس خليقا أن يقال له شعر

(١) الطيور الضعيفة الهزيلة .

وهاك هذه الهزة الدافقة الراعشة من هذه القبل الماتعة :

وأحنو لابصر بحر الضياء
يموج على لهب المقلتين
وكل تلاوين رحب السماء
تشع مع الحب في الوجنتين

انها لسلاسة واستطراد ما بعدهما سلاسة واستطراد ..

فقد كفانا تعقيدا في الشعر ورمزية فوضوية ، وتهاويل .. فالبساطة والوضوح هما أرومة الشعر الذي يلامس شغاف القلب دونما استئذان وحيا الله شاعرنا النجفي حين قال :

تفلسف في اكتناه الشعر قوم
فضاع الوقت وامتد الطريق

فدع عنك التفلسف وأرو شعرا
فلي عين ترى وفم يذوق ..

.. أشهد يا أخانا كمال ان عيوننا قريرة من رؤية حرفك ، ونفوسنا رضية من روى شعرك ، وانا لنتلمظ من ذوق طعم كل كلمة انطقتها شعورا . ووقفت بديوانك في مشارف النور ، تحمل الى النفوس المتعبة ، والقلوب الكسيرة الحب والخير والضوء والابتسام ..

فاذا كان الناقوس ، يقرع مرة لحدث ما اعجابا وتهليلا ، فلمثل ديوانك وقد فتحت فيه دربا الى قلب الانسان الجديد يقرع الناقوس مئة مرة ..

فلا تظنن انني امتدحك بما ليس فيك .. ان هي الا الحقيقة كما هي ، من غير ما تزييف او افتعال ، فما حيلتنا اذا كان مزمارك يطرب حتى الذي لم تتعود أذناه على ذوب النغم ينسكب فيهما ..

.. وما حيلتنا ازاء الجمال والحيوية ينبضان في ديوانك كقلب عذراء يمعن وجيبه في الخفقان . ؟

نعم يا أخانا كمال « لن تستتر البغاث في ديوانك، ما دام لك قراؤك ومعجبوك : ولنبق على الدرب معا ، أنت تنفخ في المزمار ، ونحن نفتح آذاننا وقلوبنا منتعشين من تراتيلك .. فمزمار شعرك يطرب شاء المغرضون أم أبوا ، ليس في حينا وبلدنا فحسب بل في الكون ..

ما همني ان كفنت كل الثلوج عوالمي
أو أحرقت سود الرياح كواكبي ، ومواسمي
او جن أعصار الطبيعة حول بيتي الحالم
أو طاف بي حزن الشتاء

وبكي بقنديلي الرجاء
ما همني ما دمت قربي توقدين عزائمي
ما همني ان عربت بيد الخريف مواسمي
ما دمت أحيا من عطائـك
في ربيع دائم

شعر كمال كما ترى بساطة في قوة ، ووضوح في طلاقـة ، وانسياب في عمق ، وابعـاد تخرج من القلب لتدخل الى القلب ، وهاكه في « لوعة » الحب المشبوب متفائلا يشدو مترنما :

حتى اذا غبنا في الرحلـة النشوى
عدنا كما كنا ٠٠ نيراننا أقوى
وروحنا ملأى بالشوق والنجوى

أرأيت اليه وقـد جسد الحب وقولبه في اطر من القوة والصمود في وجه الهوى الباكي ؟ انه يدلل ببساطة القوة على شعـوره بالحب وشـعره عن الحب ٠٠ فما أحوجنا الى الحب السخي الى الحياة ٠٠ وليس بالخبز يحيا انساننا المعاصر للمناقب والثائر على المثالب ٠

في شعر كمال شعور الاستسلام لنسمة طرية ترف على هدبـه وتنعش قلبـه ٠٠ وشعور الصمود في وجه الاعاصير ومواة الخريف ، وجدب المواسم ، ما دامت روحه الظمأى متطلعة الى القنديل المشع من عطاء الربيع الدائم ٠

أتساءل دائما : لم لا يطربنا مزمار الحي ؟

بمعنى هل من الضرورة اللازمة لكي يشعر الناقد بوجوده أن يسد ثغرات النقص عنده على أكتاف «النقد» وأن يتناول شاعرا خصبا بلواذع الكلم فيبحث في لون الغلاف وطريقة تصحيحه ٠٠ ويركز على عمر الشاعـر ومعيشته ٠٠ ويتساءل عن شؤونه الصغيرة وكأنه يريد أن يسأله ما هو لون ربطة عنقك ؟ ولا يكلف نفسه عناء استجلاء ما بعد الغلاف ، واستقراء ما بين دفتيه ٠٠؟

وما النقد الا معاناة متمرسة في التقييم فلم يسوء ناقدنـا « الطرزاني » ان يقـول كلمـة حق في معرض الحق ؟ أيسوءه ان يحيد عن جادة المنطق ، وينحرف عن احترام ذوق القارىء ومراعاة حرمته وتفكيره ؟

٠٠ ليكن كمال فوزي من غير هذا البلد لرأيت سيل المديح ينهمر عليه من بعض نقاد هذا البلد بغير حساب ٠

على ان عزاءنا وجود بعض النقاد المنصفين المتمكنين بين ظهرانينا ، ممن يضعون أيديهم على ضمائرهم قبل ان يضعوها على خناجرهم يمعنون بها طعنا وتجريحا ؟٠

وبعد ٠٠ فماذا يقال في « قبل لا تنتهي » ؟ أولا يكفي أن يتمنى واحدنا وهو يقرأ كمالا في قبله أن يكون ذوب هـذه القبلة نطبعهـا باعجـاب على جبين الشاعر شاكرين ؟٠٠

عبد الله الشيتي